الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

رئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
تصدرها
الثقافة والإرشاد القومي

الرسالة

تليفون ٥٣٩٤٠
٤٢٧٩٤

في هذا العدد

الاشتراكات :
١٥٠ قرشا سنويا
يضاف أجر بريد من
خارج ج.ع.م.

الإدارة :
٢٧ ش عبد الخالق ثروت
بريد : محمد فريد ـ القاهرة .

العدد ١٠٩٨ ـ الخميس ٢٦ رمضان ١٣٨٤هـ ـ ٢٨ يناير ١٩٦٥م ـ السنة الثانيه والعشرون

قواعد النحو فى العربية الفصحى

وعلاقتها بالدعوة الآثمة إلى استخدام العامية

للدكتور : على عبد الواحد وافى

يزعم الداعون الى استخدام العامية فى الكتابة والقراءة أن العمل بما يدعون اليه يوفر علينا الاوقات والجهود التى نبذلها الآن فى تعلم قواعد العربية الفصحى ، وخاصة ما يطلق عليه منها اسم «النحو» وهى قواعد الاعراب التى يتمثل معظمها فى أصوات مد قصيرة (حركات) تلحق أواخر الكلمات مع تنوين أو بدون تنوين لتدل على وظيفة الكلمة فى العبارة وعلاقتها بما عداها من عناصر الجملة · فيقولون ان هذه القواعد قد بلغت من الكثرة والدقة والصعوبة والتشعب مبلغا تنوء عن الاحاطة به همم كثير من الناس وتقصر عنه اعمارهم · ولذلك يندر أن نجد ، حتى من بين المتخصصين فى دراسة العربية الفصحى أنفسهم ، من يحيط بهذه القواعد احاطة تامة · هذا الى أن تطبيقها فى القراءة والكتابة يقتضى من القارىء والكاتب انتباها عميقا ومجهودا كبيرا فى ملاحظة عناصر العبارة ، وعلاقة كلماتها بعضها ببعض ، وصلة الجملة بما قبلها وما بعدها ، واستحضار ما ينطبق من هذه القواعد على كل عنصر وكل كلمة من هذه العناصر والكلمات · وانتباه ومجهود هذا شأنهما يؤديان الى تعويق القراءة والكتابة ، ويفضيان الى صعوبة الفهم وابطائه ، ولا يقوى على بذلهما الا القليل من المتوفرين على دراسة هذه القواعد · ولذلك يندر أن نجد ، حتى من بين المتخصصين فى دراسة العربية الفصحى أنفسهم ، من يستطيع تطبيق هذه القواعد تطبيقا صحيحا كاملا فى قراءته وكتابته · ويبنون على ذلك اننا اذا استخدمنا العامية ، وهى لغة مجردة من قواعد الاعراب ، استغنينا عن بذل هذه الجهود ، واتقينا هذا العنت ، واستقامت شئون قراءتنا وكتابتنا وطرائق فهمنا للعبارات · ويضيفون الى هذا كله أن الاغراض التى تحققها علامات الاعراب فى العربية الفصحى ، وهى تحديد وظيفة الكلمة فى الجملة ، تحققها اللغة العامية بوسائل أخرى سهلة يسيرة · ففى اللغة العامية تفهم وظيفة الكلمة من ترتيب وضعها فى الجملة ومن السياق ومن كلمات مستقلة ومما يكتنف العبارة من قرائن · فللدلالة على فاعلية «محمد» مثلا فى قولنا «أعطى عليا محمد الكتاب» تضع العامية كلمة «محمد» فى صدر الجملة، أو تضع فى العبارة كلمات تشير الى فاعليته ، فتقول مثلا : «محمد ادا الكتاب لعلى» أو «ادا محمد هو اللى ادا الكتاب لعلى » ·

***

ومن الغريب اننا نجد لهذه الدعوة ولهذا المنطق أنصارا من بين قدامى الباحثين أنفسهم ، ومنهم ابن خلدون ، كما يبدو مما كتبه فى مقدمته عن اللغة العامية للمجتمعات البدوية فى عهده اذ يقول :

« اننا نجد هذه اللغة فى بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضرى (يقصد العربية الفصحى وهى لغة مضر) : ولم يفقد منها الا دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول مثلا • فاعتاضوا عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ••• وما زالت هذه البلاغة وهذا البيان بدن العرب (يقصد البدو) ومذهبهم لهذا العهد • ولا تلتفتن الى خرفشة النحاة أهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وأن اللسان العربى فسد اعتبارا بما وقع فى أواخر الكلمات من فساد الاعراب الذى يتدارسون قوانينه • وهى مقالة دسها التشيع فى طباعهم ، والقاها القصور فى أفئدتهم • والا فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل فى موضوعاتها الاولى ، والتعبير عن المقاصد والتفاوت فيه بتفاوت الابانة موجود فى كلامهم لهذا العهد ، وأساليب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجودة فى مخاطباتهم • ولم يفقد من أحوال اللسان المدون الا حركات الاعراب فى أواخر الكلمة فقط ، الذى لزم فى لسان مضر طريقة واحدة ومهيعا معروفا ، وهو الاعراب ، وهو بعض أحكام اللسان••• ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد (يقصد اللهجات العامية المستخدمة لعهده فى المجتمعات البدوية فى التخاطب) واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه » •

هذا ، وقد كشفنا فى مقال سابق عن الاغراض الآثمة التى يرمى اليها جماعة الشعوبيين الداعين فى الوقت الحاضر الى استخدام العامية فى القراءة والكتابة ، وعن الكوارث البليغة التى تصيب الثقافة العربية والفكر العربى وتقوض أهم دعامة تعتمد عليها وحدة الوطن العربى وقومية أهله اذا تحقق ـ لا قدر الله ـ مايدعون اليه • فبحسبنا هنا أن نبين فساد منطقهم فيما يذهبون اليه بصدد موضوع هذا المقال وهو قواعد النحو فى العربية الفصحى :

١ ـ فليس بصحيح ما يزعمونه من أن قواعد النحو قد بلغت فى كثرتها وصعوبتها وتشعبها مبلغا تنوء عن الاحاطة به همم كثير من الناس وتقصر عنه أعمارهم • بل اننا لا نجد من بين قواعد اللغات الانسانية الراقية جميعها ما وصل فى ضبطه واطراده وقلة أصوله ويسر مأخذه وسهولة الاحاطة به الى ما وصلت اليه قواعد النحو فى العربية الفصحى ؛ ولم يوفق علماء القواعد فى أية لغة انسانية راقية الى ما وفق اليه علماء النحو فى العربية الفصحى ، اذ استطاعوا ـ بفضل عبقرياتهم وعمق تفكيرهم ومناهجهم السليمة فى البحث وما بذلوه من جهود مضنية فى هذا السبيل ـ أن يرجعوا جميع ما استخلصوه من ملاحظة كلام العرب قديمه وحديثه الى قواعد محكمة مطردة قليلة ، منقطعة النظير فى احكامها واطرادها وقلة عددها ؛ حتى انه ليمكن حصرها فى ثلاثة القواعد الآتية :

● من الكلمات العربية ما هو مبنى ملازم آخره حالة واحدة ، ومنها ماهو معرب يتغير آخره بتغير وظيفته فى الجملة • والمبنى من الكلمات هو الحروف والافعال الماضية وأفعال الامر وأفعال المضارع اذا اتصلت بها نون التوكيد أو نون النسوة وطوائف محدودة من الأسماء كالضمائر وأسماء الموصول والاشارة والشرط والعدد المركب ••• والمعرب من الكلمات هو ما عدا ذلك من الاسماء والافعال •

● المعرب من الاسماء يرفع وينصب ويجر، ولكل وضع من هذه الاوضاع حالات خاصة حصرها علماء النحو حصرا دقيقا • والمعرب من الافعال يرفع وينصب ويجزم • فينصب اذا دخل عليه ناصب ويجزم اذا دخل عليه جازم ويرفع اذا تجرد منهما • والنواصب والجوازم محصورة العدد مبينة النوع محددة العمل •

● الأصل فى الاعراب على الاطلاق أن يكون بالحركات وهى الفتحة للنصب والكسرة للجر والضمة للرفع والسكون للجزم • ويستثنى من ذلك جمع المؤنث السالم فانه ينصب بالكسرة ، والاسم

الممنوع من الصرف اذا لم يضف ولم يعرف بال فانه يجر بالفتحة ، والاسم المعتل الآخر فان الحركة لا تظهر الا على اليائى منه فى حالة النصب وتكون مقدرة فيما عدا ذلك ، والفعل المعتل الاخر فان اعرابه فى حالة الجزم يكون بحذف آخره وفى حالة الرفع بحركة مقدرة وفى حالة النصب بحركة مقدرة فى المعتل بالألف وظاهرة فيما عداه . والافعال الخمسة فان اعرابها يكون بثبوت النون فى حالة رفعها وحذفها فى حالتى النصب والجزم ، وثلاث طوائف من الاسماء وهى المثنى وجمع المذكر السالم والأسماء الخمسة ، فان اعرابها يكون بالحروف أى بتغير حرف من حروفها ، وقد بين علماء النحو طرق الاعراب بالحروف فى كل طائفة منها .

والاسم المعرب بالحركات يدخله التنوين الا اذا كان مضافا أو معرفا بال أو ممنوعا من الصرف

هذه هى قواعد النحو التى يهول اعداء العربية الفصحى فى شأنها ، ويصورونها فى صورة أمور مخيفة تعجز عقول البشر عن ادراكها . فقد أمكننا ـ بفضل سهولتها وضبطها وقلة أصولها ـ أن نحصرها فى ثلاث قواعد يمكن تلقينها صغار المتعلمين فى بضعة دروس اذا ترسمنا الطرائق الجادة فى التعليم .

٢ ـ وليس بصحيح ما يزعمونه من أن مراعاة هذه القواعد فى القراءة والكتابة تقتضى انتباها عميقا وجهدا كبيرا يفضيان الى تعويق القراءة والكتابة والى صعوبة الفهم وابطائه . بل انها ـ ليسرها وضبطها وقلتها ـ تنطبع فى الأذهان انطباعا قويا ويسهل استحضارها . وبتكرار مراعاتها وكثرة استعمالها فى القراءة والكتابة تتكون لدى الفرد بحكم العادة ملكة سليمة يستطيع بفضلها القراءة والحديث والكتابة وفق هذه القواعد بدون أن يقتضيه ذلك شيئا مذكورا من الانتباه والمجهود . وهكذا جميع الامور التى تستقر بحكم العادة ، وهذه هى سنة الله فى جميع لغات بنى الانسان .

واذا كان معظم المتعلمين فى الوطن العربى يعجزون عن القراءة والحديث بالعربية الفصحى ، فان سبب ذلك لا يرجع الى صعوبة قواعد هذه اللغة ، وانما يرجع الى استهانة المدارس بشأنها وفساد فى طرق تعليمها ، والى أن المعلمين لا يأخذون تلاميذهم بالحديث والقراءة بالعربية الفصحى ، ولا يعملون على تكوين هذه العادات فى ألسنتهم وأقلامهم ، وانما يكتفون بعرض قواعدها عرضا جافا لايكون ملكة ولا يقوم لسانا . واذا كان المتخرجون فى الوقت الحاضر فى معاهد التخصص فى اللغة العربية لا يجيد معظمهم هذه اللغة اجادة تامة ، فان ذلك لا يرجع الى صعوبة قواعدها ، وانما يرجع كذلك الى فساد فى مناهج هذه المعاهد ، واقحام عدد كبير من المواد الدخيلة فى خططها لتحقيق تطويرها فيما يزعمون ، وطغيان هذه المواد الدخيلة على موادها الاصلية ، واستئثارها بأكبر قسط من الوقت والمجهود . وكذلك انتهى الامر فى معاهد التخصص فى عقائد الاسلام وشرائعه ، وهى معاهد ترتبط موضوعاتها ارتباطا وثيقا باللغة العربية الفصحى .

٣ ـ وليس بصحيح ما يزعمونه من أن الاغراض التى تحققها قواعد الاعراب فى العربية الفصحى تحققها العامية . وذلك أن وظيفة الكلمة فى الجملة أى كون مدلولها فاعلا أو مفعولا او حالا أو تمييزا أو مضافا اليه أو خبرا أو شرطا أو جوابا ...الخ . كل ذلك يستبين فى العربية الفصحى بعلامات تلحق الكلمة نفسها وتكون جزءا منها وهى علامات الاعراب ، وبذلك تظهر فى صورة واضحة دقيقة معانى الكلمات وعلاقاتها بعضها ببعض ومدلول العبارة فى جملتها ، ويظهر هذا كله بدون حشو ولا اقحام كلمات ولا اعتماد على ايحاء السياق أو على قرائن خارجة أو على الحدس والتخمين . وهذه سمة من أبرز السمات التى تمتاز بها اللغات الراقية . على حين أن العامية لتجردها من علامات الاعراب لا تفهم من عباراتها هذه الامور الا عن طريق ترتيب الكلمات فى الجمل ، وتطويل الجملة باقحام كلمات فيها ، والاعتماد على ما يوحى به السياق ، وتهدى اليه القرائن الخارجة ، ويرشد اليه الظن والاجتهاد . وأداة هذا شأنها لا تقوى مطلقا على التعبير عن المعانى الدقيقة ، ولا عن حقائق الآداب والعلوم والانتاج الفكرى المنظم . ولا أدل على ذلك من اننا فى حديثنا العادى نفسه كثيرا ما نضطر الى استخدام قواعد العربية الفصحى حينما نكون بصدد التعبير عن حقائق منظمة وأفكار مسلسلة : لا نفعل

ذلك للمباهاة واظهار القدرة على التعبير الفصيح ، وانما نفعله مضطرين اضطرارا . لاننـــا نرى أن العامية لا تسعفنا فى قواعدها بما يضبط تفكيرنا ، وينقله نقلا صحيحا الى الاذهان . فاذا لم نجد أمامنا الا اللغة العامية نستخدمها ـ بقواعدها الســاذجة المضطربة ومفرداتها المبهمة الدلالة المحدودة العدد ـ فى جميع شـــئون تفكيرنا وتعبيرنا ، لتقطعت بنا أسباب الثقافة ، ونكصنا الى الوراء قرونا عديدة ، وقضى على نشاطنا الفكرى قضاء مبرما . لان الفكر اذا لم تســعفه أداة مواتيــة ودقيقة فى التعبير ، خمدت جذوته ، وضعفت همته ، وضـــاق نطاقه واقتصر نشــاطه على تــوافه البـــحوث وسفساف التأملات . فاللغة هى القـــالب الذى يصب فيه التفكير . فكلما ضاق نطاق هذا القالب واضطربت أوضاعه ضاق نطاق الفكر واختل انتاجه .

هذا . ويحمل لواء الدعوة فى الوقت الحاضر الى استخدام العامية واطراح العربية الفصحى وقواعد اعرابها بجانب الجهات والهيئات التى أشار اليهـا صديقنا العلامة الاستاذ «محمود محمد شاكر» فى مقالاته القيمة فى الاعداد الاخيرة بالرسالة ، وبجانب الجهات والهيئات التى أشرنا نحن اليها كذلك فى مقال سابق بهذه المجلة ـ منظمات يهودية لها عملاء فى مختلف البلاد العربية من أبناء هذه البلاد نفسها مع الأسف الشديد . ويساعدها فى ترويج دعوتها طائفة من الباحثين فى فقه اللغة من علمـــاء اليهود بوجه خاص . وقـــد بلغ الأمر ببعض هـــؤلاء أن زعـــم أن قواعد الاعراب لم تكن مراعاة فى لهجات الحديث عند العرب ولا فى لغات آدابهم وكتاباتهم ، وانما خلقها النحاة خلقا قاصدين بذلك تزويد اللغة العربية بنظم شبيهة بنظم اللغة اليـــونانية ، حتى يكمل نقصها وتسمو الى مصاف اللغات الراقية !! ولما كان أصحاب هذا الراى ينتمون الى علماء اللغة ، ويحاولون أن يلبسوا باطلهم هـــذا ثوب الحق ، ويموهوا على ذوى العقـــول الضعيفة بسفسطة من الاستدلال ، رأينا من الخير أن نعرض فيما يلى لأهم أدلتهم ونبين بطلانها .

يرجع أهم ما يتظـــاهرون بالاعتماد عليه الى ثلاثة أمور :

أحدها أن جميع اللهجات العامية المتشـــعبة من العربية والتى تســـتخدم الآن فى البـــلاد العربية اللسان ـ مجردة من الاعراب . فلو كانت اللغة العربية القديمة معربة الكلمات لانتقل شىء من نظامها هذا الى جميع اللهجات الحاضرة او الى بعضها على الاقل .

وثانيها أن قواعد هذا شأنها فى التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقتها بعضها ببعض لا يعقل أنهـا كانت مراعاة فى لهجات الحديث عند العرب ، لأن لهجات الحديث تتوخى فى العادة السهولة واليسر وتلجأ الى أقرب الطرق للتعبير .

وثالثها أن قواعد هذا شأنها تشعبا ودقة لايعقل ان تكون قد نشأت من تلقـــاء نفسهـــا ، ولا يمكن لعقليات ساذجة كعقليات العرب فى عصورهم الاولى أن تقوى على خلقها ، فهى تحمل آثار الصنعة الدقيقة المحكمة ، ويبدو عليهـــا طابع من عقليـــة المدارس النحوية التى ظهرت فى العهود الاســـلامية بالبصرة والكوفة وما اليهما .

هذا هو أهم ما يستدلون به على رأيهم . وفيما يلى طرف من البراهين الدامغة على فســـاد أدلتهم هذه وتهافتها :

١ ـ ان عدم وجود هذه القـــواعد فى اللهجات العامية الحاضرة لا ينهض دليـــلا على أنهـــا لم تكن موجودة فى العربية الاولى . فقد انتاب أصوات اللغة العربية وقواعدها فى هذه اللهجات كثير من صنوف التغير والانحراف ، وخضعت لقـــوانين التطور فى مفرداتها وأوزانها ودلالاتها فبعدت بعدا كبيرا عن أصلها .

٢ ـ ليس بغـــريب أن تتفق اللهجـــات العامية جميعا فى التجرد من علامات الاعراب . فقد خضعت لقـــانون من قوانين التطور الصوتى ، وهو ضعف الاصوات الاخيرة فى الكلمة وانقراضها ، وهو قانون عام قد خضعت له جميع اللغـــات الانسانية فى تطورها ، فمـــا كان يمكن أن تفلت منه لهجة من اللهجات العامية المتشعبة عن العربية .

٣ ـ ان دقة القواعد لاتدل مطلقا على أنها مخترعة اختراعا . فاليونانية واللاتينية مثـــلا فى العصور

القديمة ، والالمانية في العصر الحاضر ، تشتمل كل واحدة منها على قواعد لا تقل في دقتها وتشعبها عن قواعد اللغة العربية ، ولم يؤثر هذا في انتقالها من جيل الى جيل ، ولا في مراعاتها في الحديث ، ولم يقل أحد انها من خلق علماء القواعد .

٤ ـ ان خلق القواعد خلقا محاولة لا يتصورها العقل ، ولم يحدث لها نظير في التاريخ ، ولا يمكن أن يفكر فيها عاقل و يتصور نجاحها، فمن الواضح أن قواعد اللغة ليست من الأمور التى تخترع او تفرض على الناس، بل تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج .

٥ ـ واذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطئوا جميعا على ذلك ، فانه لا يمكن أن نتصور انه قد تواطأ معهم عليه جميع العلماء والمؤرخين من معاصريهم ، فأجمعوا كلمتهم ألا يذكر أحد منهم شيئا ما عن هذا الاختراع العجيب . ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها ممثلة بقواعد لغتهم ويحتذوها في كتاباتهم . اللهم الا اذا كان علماء البصرة والكوفة قد سحروا عقول الناس والسنتهم واسترهبوهم وانسوهم معارفهم عن لغتهم وتاريخها، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاءوا به من الافك ممثل لفصيح هذه اللغة .

٦ ـ تقوم أوزان الشعر العربي وقواعده الموسيقية على ملاحظة نظام الاعراب في المفردات . فبدون اعراب الكلمات تختل أوزان هذا الشعر وتضطرب موسيقاه . ومما لا شك فيه أن هذه الاوزان سابقة لعلماء البصرة والكوفة ، وأن شعرا عربيا كثيرا قد قيل على غرارها من قبل الاسلام ومن بعده قبل ان يخلق هؤلاء العلماء . فانكار هذا الشعر لا سبيل اليه . ولا يمكن ان يكون قد الف غير معرب الكلمات ، لان عدم اعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه .

٧ ـ وأقوى من هذا كله في الدلالة على فساد هذا المذهب تواتر القرآن الكريم ووصوله الينا معرب الكلمات ، وقد نزل «بلسان عربي مبين» .

٨ ـ ان في رسم المصحف العثماني نفسه ، مع تجرده من الاعجام والشكل ، لدليلا على فساد هذا المذهب . وذلك أن المصحف العثماني يرمز الى كثير من علامات الاعراب بالحروف (المؤمنون ، المؤمنين.) والى علامة اعراب المنصوب المنون (رسولا ، شهيدا، بصيرا ...) وهلم جرا . ولا شك أن المصحف العثماني قد دون في عصر سابق بأمد غير قصير لعهد علماء البصرة والكوفة الذين تنسب اليهم هذه المذاهب الفاسدة اختراع قواعد الاعراب .

ولهذه البراهين الدامغة وغيرها تبين فساد الرأى الذى نناقشه لجميع المحققين من باحثى الفرنجة أنفسهم حتى لأكثرهم تحاملا على العرب ، وأشدهم ولوعا بالانتقاص من حضارتهم ولغتهم مثل رينان الفرنسى .

فنظام الاعراب عنصر أساسي من عناصر العربية الفصحى ، وهو سمة من سمات رقيها ، وقد اشتملت عليه منذ أقدم عصورها . وكل ما عمله علماء القواعد حياله هو أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصا من القرآن والحديث وكلام الفصحاء من العرب ، ورتبوها وصاغوها في صورة قواعد وقوانين . ويدلنا التاريخ أنهم كانوا أمناء كل الامانة في استخلاص قواعدهم، وأنهم كانوا يلاحظون المحادثة العربية في أصح مظاهرها ، ويستنبطون قواعدهم من هذه الملاحظة ، وانهم كانوا لا يدخرون وسعا في دقة الملاحظة واتخاذ وسائل الحيطة ، حتى انهم ما كانوا يثقون بأهل الحضر ، لأن لغتهم كان قد تطرق اليها الفساد في عصرهم ، ولا بالقبائل التى احتكت ألسنتها بلغات أجنبية كلخم وجذام وقضاعة وغسان واياد وبكر وأزد عمان وأهل اليمن ، وانهم كانوا يبذلون في سبيل ذلك من وقتهم وجهودهم شيئا كثيرا ، فكانوا يرحلون الى الأعراب في باديتهم ويقضون عندهم الشهور بل السنين ، وعلماء هذا شأنهم دقة واحتياطا واخلاصا للعلم ، وهذه نتائج بحثهم ناطقة بعبقريتهم وعمق تفكيرهم وسلامة بحثهم، خليقون منا بأطيب الحمد وعظيم الثناء ، طيب الله ثراهم ، وجزاهم عن العربية والاسلام خير الجزاء .

د . على عبد الواحد وافي

.. وهذه هي أخطارها !!

(١٠)

بقلم: محمود محمد شاكر

لقد أحسن الدكتور محمد مندور من حيث لم يدر، ومن حيث لم يرد، الى والى الناس، حين كتب ما كتب فى مجلة «روز اليوسف»، فصرفنى عن قضية العامية واستبدالها بالفصحى، الى قضية أخطر منها واشد تأثيرا فى أيامنا هذه، لا بل هى أوغل فى التدمير الذى يراد بنا، وأفتك بالعقول والنفوس، وأبشع أثرا فى حياة كل فتى وفتاة من أهل الاسلام ومن أبناء العرب. وقد عالجتها من الوجه الذى لا يجوز لعاقل يعقل ما يقول، أن يعالجها من وجه غيره، وهو البيان الصريح عن معانى الألفاظ، وما تحمله فى طياتها من تاريخ متصل، وما تنطوى عليه من عقيدة متكاملة مترابطة، تفقد كل معنى، اذا أراد مريد، أو تخيل متخيل، أنه قادر على أن ينفض عن هذه الألفاظ دلالتها فى صلب العقيدة المسيحية، وهى الألفاظ الأربعة التى تدور فى السنة بعض الشعراء من أبناء الاسلام، وهى «الخطيئة» و «الفداء» و «الصلب»، و «الخلاص». وليس يجدى شيئا ولا يغنى، أن يحتال محتال فيزعم أن هذه الألفاظ رموز لمعان انسانية مجردة، كالتضحية فى سبيل القيمة أو المبدأ الذى يؤمن به انسان ما من الناس، لأن مئات من الألفاظ فى لغة العرب، وفى غير لغة العرب، قادرة على أن تكون رموزا لهذا الشىء نفسه، بمجرد الدعوى عندئذ. فهذه الألفاظ الأربعة اذا خلت من دلالتها فى عقيدة أصحابها ومستعمليها ومعتقديها، صارت كسائر ألفاظ اللغة، لا تحمل شيئا الا معناها اللغوى المجرد. فمن أبطل الباطل أن يجعلها امرؤ صالحة لأن تكون «رمزا» بدلالتها اللغوية المجردة. فان كل لفظ فى اللغة صالح عندئذ أن يكون «رمزا»، بلا فرق فى ذلك بين الألفاظ اللغوية. والنتيجة المنطقية لهذه الدعوى، أن كل امرىء مباح له أن يجعل كل لفظ فى اللغة، رمزا لشىء يتوهمه هو، وان كان غيره من الناس لا يرى له معنى مفهوما عنده، الا المعنى المتداول المعروف. وكذلك يصبح الناس يوما ما، اذا سار الشعراء والكتاب هذه السيرة، واذا اللغة ضرب من الخبل، ككلام الموسوسين والممرورين، لا يفهم أحد عن احد شيئا الا بمعجم خاص بكل شاعر وكل كاتب، وخير للناس يومئذ أن يعيشوا بين أسوار مسورة، كالأسوار التى انطلق من ورائها انسان مثل لويس عوض، وفلان وفلان، ممن يقرأ لهم المرء فيقع فى دوار كدوار البحر الهائج.

ومع ذلك، فبين عندى، وسيكون بينا ان شاء الله عند كل قارىء، أن قضية العامية واستبدالها بالفصحى، وقضية استعمال هذه الألفاظ وأشباهها، هما فى الحقيقة قضية واحدة، لا من حيث مآلهما وعواقبها، بل من حيث مصدرها ومنابعها ايضا. ولذلك أظننى لم أفارق الموضوع الذى بدأته، اذ كنت قد ألزمت الزاما أن أجعل احدى القضيتين تتخلل الأخرى وتعيث فى سياقها. وكان السياق أن أفرغ من قضية العامية واستبدالها بالفصحى، ثم أتبعها بالقضايا النابعة من حيث نبعت هذه القضية. وان شئت أن أقول ان لى أسوة حسنة بأسلافى من أهل هذه العربية، يوم كانوا يعدون الاستطراد بابا من أبواب التخفيف والاستجمام، حتى لا تستكره النفوس على احتمال باب واحد من العلم، فيتخللونه بأشباهه ونقائضه وما يمت اليه بسبب من الاتصال أو المفارقة، ليكون ذلك أروح للنفس، وادعى الى احتمالها مؤونة التعب فى التزام باب واحد من الفكر، وأنفى للملل الذى يأخذ بأكظامها حتى تضيق بما تقرأ أو تسمع، وكان رأس هؤلاء أبو عثمان الجاحظ، وابو العباس المبرد،

وغيرهما من الكتاب والأدباء ، والعلماء والشعراء أيضا .

فالآن أعود الى حيث قطعني الدكتور مندور مشكورا على ما فعل . وقبل ان أعود الى وصل ما انقطع ، أجده حقا على أن أدل القارىء على شيء وقع لى منذ أيام قلائل اتفاقا . فانى كتبت فى المقالة الثامنة ، شيئا عن تاريخ المعركة بين العالم الأوربى المسيحى ، والعالم الاسلامى العربى ، ورسمت صورة سريعة لما كان ، وقلت : « انها صورة لا يكاد يخطئها من كان له أدنى المام بتاريخ الغزو الأوربى المسيحى للعالم الاسلامى » ، وذلك اذ بينت أن تجارب الحروب الصليبية ، وحروب آل عثمان من الترك ، قد دلت العالم الأوربى المسيحى دلالة قاطعة على أن مواجهة العالم الاسلامى بالانقضاض المسلح ، لاتجدى الا انبعاث قوة متماسكة شديدة البأس والخطر ، خليقه أن تسترد شبابها ، مهما كان فى كيانها من العيوب . فكان من الحكمة أن يتجنب العالم الأوربى المسيحى مواجهة العالم الاسلامى ، وكان من حسن التدبير واتقاء العواقب ، أن تدور هذه القوة الأوربية المسيحية الجديدة ، من حول العالم الاسلامى ، تتنقصه من أطرافه البعيدة بمهارة وحذر ، فدبت أوربا دبيبا حول هذا العالم ، وجعلت تطوق شواطىء الاسلام فى افريقية وفى آسيا بطوق من الثغور تحتلها ، ثم تنفذ من كل ثغر الى بدن العالم الاسلامى شيئا فشيئا ، بحذر ، وبلا ضجيج يزعج . وانتهيت فى كلمتى الى أن أقل هذا الغزو نكاية بالعالم الاسلامى هو الجيوش ، وأبلغه افتراسا هو التجارة، وأفتكه بالانسان الذى يسكن العالم الاسلامى ، هو « التبشير » . وذهبت الى أن « التبشير » ليس معناه اقتصار فئة من الرهبان والقسوس على الدعوة الى دينهم ، من حيث هو عقيدة يسمعها المرء فيرضاها أو ينكرها ، فهذا باطل ، بل معناه أنه أفتك أسلحة الغزو الأوربى المسيحى ، ويراد به اخضاع العالم الاسلامى لسيطرة العالم الاوربى المسيحى ، بوسائل خبيثة من التدسس والتدمير والهدم ، فى كل ناحية من حياتنا الاجتماعية والسياسية والادبية .. واخضاع عقل المسلم للعقل الاوربى وطرائق تفكيره ، لينشأ فى هذا العالم من أبنائه ضرب من المسوخ .. يكون عبيدا تذلل الطريق لأقدام السادة الطغاة ، من حيث لايدرى أحدهم أنه عبد مسخر ، يعمل فى سيادة هذه الحضارة الجديدة على حضارته ، بل يعمل على هدمها واستئصالها من نفسه ومن نفوس أمته .

فكان من الاتفاق أن وقع فى يدى منذ أيام قلائل كتاب مترجم بعنوان « **العالم والغرب** » ، لكبير المؤرخين الانجليز فى العصر الحاضر ، وهو « أرنولد توينبى » ، نظر الى هذه المسالة نظرة مجردة ، وان كان لا يخلو ، بلا تثريب عليه ، من أثر الفكر الذى يعد نفسه سيدا فى هذه الأرض ، لا ينازعه فيها منازع ، وهو الفكر الأوربى المسيحى المتغطرس . وسأنقل كلامه ، لا لأنى ممن يشغل نفسه بالتماس تأييد لما يقول من أوربى ، فان هذا لا يكاد يخطر لى ببال ، لأنى منذ رفضت أن أكون عبدا لهذه الحضارة الأوربية ، كما اراد نظام تعليم دنلوب فى مدارسنا وجامعاتنا أن يجعلنى ، رفضت أيضا أن أجعل لعقول هؤلاء الناس سيادة على عقلى . بل أنقله ليعلم كثير من المفتونين من الشباب البرىء الظامىء الى المعرفة ، الطالب للحق ، المضلل عن الحق ، الساعى الى احياء أمته بعد الذى رأى من آثار العبودية والذل على جباهها وأبدانها ، أنه قادر بالتأمل واليقظة وحسن الادراك ، أن يعرف الحق بجهده واخلاصه ، اذا أدرك حقيقة واحدة : هى أن هذا العالم الأوربى الباغى ، عدو له شديد العداوة ، وأنه ماكر شديد المكر ، وأنه خبير حسن الخبرة بتهديم الأمم وردها القهقرى مترديه فى الغموض والحيرة ، وأنه لذلك خليق أن لا يأمن أحدا ، مهما كان شأنه ، على دعوة يدعيها ، أو بدعة يدعو اليها ، وأن عليه أن يحذر الألسنة ، فان اللسان أكذب شيء اذا خان ، وأصدق شيء اذا حمل الأمانة وأداها على وجهها . وسأزيد هذا بيانا فيما أكتب ان شاء الله .

عقد توينبى فصلا فى كتابه سماه « الاسلام والغرب » ، لا أستطيع أن أنقله هنا بحذافيره ، ولكنى سأنقل منه ما يدلك على هذه الصورة التى رسمتها ، وعلى أن اللغة الفصحى التى يراد هدمها وازالتها ، ليست من الهوان بالمنزلة التى تغفل عنها حكومات العرب والمسلمين ، لا من حيث نقول نحن ، بل حيث يقول هذا الانجليزى المؤرخ ، قال :

« بعد فشل الاتراك أمام ابواب فينا عام ١٦٨٣، كان يجب أن يتم الهجوم المعاكس الغربى على العالم الاسلامى ، فى يوم أو آخر ، ولكنه تأخر فى الظهور

بسبب الصورة التي كانت في مخيلة الغربيين عن شجاعة الاتراك والمسلمين وبسالتهم العسكرية ، وقد أجاب العالم الغربي على استيلاء الأتراك على المسيحية والارثوذكسية الشرقية في القرنين الرابع والخامس عشر ، بتأمين سيادته على البحار ، لتطويق البلاد الاسلامية ، عوضا عن مقابلتها وجها لوجه ، كما فعل خلال الحروب الصليبية التي كانت نتائجها وخيمة عليه • وفي طوافهم حول افريقية ، وصل البحارة البرتغاليون الى الشواطئ الغربية للهند ، سابقين ببضع سنوات الى هناك المغول ، آخر موجة من موجات الاسلام التوسعية ، هؤلاء الذين قدموا من آسيا الوسطى بطريق البر ، وعندما حقق الاسبانيون ربط المحيط الاطلسي والهادئ مرورا بمكسيكو ، قامت في الفلبين حواجز جديدة آسيوية هذه المرة ، بين المسيحية الغربية والاسلام ، اللذين لم يتجاورا ، حتى ذلك التاريخ ، الا في الطرف الثاني من العالم ، في وادي الدانوب ، وغربي المتوسط • وهكذا في نهاية القرن السادس عشر ، بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغرب ان يطوق البلاد الاسلامية ، ولكنه لم يخاطر في شد الحبل الا في القرن التاسع عشر ، فيما بعد ، وحتى ذلك التاريخ ، كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين ، وتشدد عزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من انفسهم • وهذه الثقة المتينة ، قضى عليها شيئا فشيئا على أثر الفشل المتتالي الذي منيت به الامبراطورية العثمانية ، وباقي الدول الاسلامية ، وقد كبدهم اياه خصم مجهز بأسلحة غربية ، يملك التكنيك والعلم اللذين تقوم عليهما الحرب الحديثة » •

ويؤسفني أن الاصل الانجليزي لم يقع في يدي حتى أترجمه ، ولكن هذه الترجمة على مافيها ، مفهومة المعنى ، وهي نص ماقلت في كلمتي الثامنة• ومن البين ان مؤرخا مثل توينبي ، لا يلقي القول جزافا في أمر هو من صلب مادته ، وفي جزء لايتجزأ من تاريخ حضارته • ولكنه في هذا الفصل ، حين حلل ماجرى في تركيا الى أن جاءت نكبة مصطفى كمال ، كان ينظر كعادته من خلال عقيدته في الحضارة الغربية المسيحية ، كما يفعل معذورا أو غير معذور ، كل مفكر أوربي ، وهي أن السيادة التي بلغتها الحضارة الاوربية في كل شيء خاضعة « لطريقة العيش الغربية » ، وأن النهضة والاحياء لاتتم ، الا باعتناق مبادئ الحضارة الغربية •

ومهما بلغ عقل توينبي وذكاؤه ، فان هذا لايمنع من ان يكون رأيه فاسدا في مثل هذه الامور ، لان العقل الذي لايتصور أن الحياة البشرية قادرة على صنع الحضارات ، بلا استناد الى « طريقة العيش الغربية » و « اعتناق مبادئ الحضارة الغربية » ، عقل قد اسقط من حسابه أن الحضارات قامت وبادت ، من قبل ان تكون الحضارة الغربية واصولها جميعا على ظهر الارض ، وأن هذه الحضارة اذا بادت واستؤصلت ، فالانسان أيا كان بعد ذلك ، قادر على ان يبني حضارة جديدة تناقض هذه الحضارة الغربية في «طريقة العيش» ، وفي «المبادئ» التي يدعيها • ولكن آفة العقل الاوربي ، أنه لايرى في الدنيا الا نفسه ، ولا ينظر الى الحضارات الا من خلال ماضيه وحاضره ، وصدق الله : « أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الارض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون • فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون » • وهذا العقل الاوربي فرح بما عنده من العلم ، مستهزئ بكل ما لايطابق مايراه من حضارات الماضين ، وحضارات الآتين ، بعد ان تكف الحضارة الاوربية المسيحية عن أن تكون حضارة لها شأن يذكر ، وان ذلك لكائن ان شاء الله •

وليس من همي هنا أن أنقض على توينبي فكره ونظره وتحكمه ، بل من همي أن اكشف عن اشياء تنبه لها ، لها صلة وثيقة بما نحن فيه ، وهي محمدة له نعترف بها ، وينبغي أن يكون واضحا اننا لانسلب الناس فضائلهم من أي أهل لسان كانوا ، ومن أي أهل ملة نعرفها • فهو بعد ان حلل موقف تركيا من الحضارة الغربية قال :

« وهناك بدون شك أفكار ومؤسسات غربيةأخرى هي ابعد بكثير من ان تكون حسنات ، سنكتفي بذكر واحدة منها فقط ، هي الفكرة القومية ، والاتراك كسائر الشعوب الاسلامية ، انتقلت اليهم عدوى القومية مع غيرها من المفاهيم الغربية الصالحة منها والطالحة • ونستطيع أن نتساءل عن نتيجة تسرب هذا المبدأ الى العالم الاسلامي ، حيث تعلم التقاليد

الموروثة أبا عن جد (انه ليس تقليدا ، بل هو دين نحن مسئولون عنه يوم القيامة بين يدى رب العالمين) ان المسلمين كلهم اخوة بفضل دينهم المشترك ، على الرغم من الاختلاف فى العنصر ، واللغة ، والوطن . فى هذا الوقت لنا ملء الحق أن نتساءل عما اذا كانت الاخوة الاسلامية التقليدية ، ستحمل حلا للمشكلة الاجتماعية ، أفضل من الحل الذى يقدمه التقليد الغربى القائم على الاعتراف باستقلال وسيادة كل امة . ان المجموعة الغربية بوضعها الحالى ، منذ الحرب العالمية الثانية ، قد قسمت وفككت الى اربعين دولة سيدة مستقلة ، أى ان البيت قد « انقسم على نفسه» ومع ذلك مازال للغرب مقدار كاف من النفوذ فى العالم ، كى تحتفظ جرثومة القومية بفعاليتها ، وانا لنأمل ألا نرى هذه الجرثومة تنتشر فى العالم الاسلامى على الاقل ، لان الوحدة السياسية والاجتماعية على مستوى ونطاق عالميين ، هما ضرورتان لسلامة الانسانية ، اليوم فى الحقبة الذرية النووية ، اكثر من أى وقت مضى . وقد قدم الشعب التركى بقيادة أتاتورك ،خدمة كبرى للعالم الاسلامى بمحاولته حل مسألة « الاستغراب » (أى الخضوع لطريقة العيش الغربية ، واعتناق مبادىء الحضارة الغربية) . المعروضة على جميع الشعوب ، بتبنيه دون تحفظ ، الافكار الغربية الحديثة ، ومن بينها القومية وغيرها ، غير ان باقى البلدان الاسلامية ، ليست فى حاجة لان تتبع تماما الطريق الذى خطه الرواد الاتراك » . ثم يقول فى اثر ذلك :

« ان هناك بلادا اسلامية ، عربية اللغة ، واذا كانت لغة التخاطب تختلف حسب المناطق (ويعنى اللغات العامية) ، فان اللغة الفصحى واحدة من شواطىء الأطلسى فى المغرب ، الى حدود فارس الغربية شرقا عند شواطىء الخليج العربى ، ومن حلب والموصل شمالا ، حتى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار جنوبا . جميع الكتب والصحف الصادرة فى القاهرة ودمشق وبيروت ، تقرأ فى هذه المنطقة الشاسعة كلها ، وحتى خارجها ، لأن اللغة العربية ، هى اللغة الدينية لجميع البلدان الاسلامية ، حتى تلك التى لا تستخدمها فى التخاطب . فهل من الضرورى أن يجزأ هذا العالم العربى الى عشرين دولة مستقلة ، تعيش بعزلة تامة عن بعضها البعض ؟ وهل من الضرورى حقيقة أن نرى العالم العربى يتفكك ويتجزأ ، كما حصل مع الأسف للامبراطورية الاسبانية الامريكية ؟ ان هذه التجزئة ، تعتبر من أخطر نقائص حضارتنا الغربية ، وسيكون مؤسفا حقا أن نرى الشعوب العربية تنسج على منوالنا فى هذه الناحية » .

وتوينبى أحد أذكياء المؤرخين ، وعلم من أعلامهم، وبذكائه وعلمه،انتبه الى مايغفل عنه من يعدون انفسهم أو كان الناس يعدونهم ولا يزالون ، أهل حكمة ورأى من أهل جلدتنا . ولكنه حين درس المسالة التركية وحللها ، كان خاضعا خضوعا تاما لوراثة قومه عداوة الترك ، لأنهم كانوا آخر كتيبة من كتائب الاسلام فى مد ثلاثة عشر قرنا ، صدمت جدار الحصن المنيع الذى اعتصمت به أوربا المسيحية ، منذ عادت أدراجها هزيمة عن آخر معركة صليبية ، ثم نفذت فيه ، وتركت كلمة الله تعلو فوق شواهق جباله ، ومع كل ذلك ، فقد كان الرجل صادقا فى نظره ، وان أساء تصوير المسالة التركية ، ولذلك لم تحجبه هذه العلة القادحة فى بعض نظره ، من أن يفضى الى نتيجة صحيحة ، حين نظر الى العالم العربى ، وأنكر سعى قومه ، منذ كان لهم علينا سلطان ، الى تفتيت وحدتنا الى دويلات لا تقوم واحدة منهن فى هذا العالم بنفسها ، مهما بلغت من القوة ، ولا سيما فى هذا العصر الذى تتنازع السيادة فيه القوى العلمية، فى الكتل البشرية الوفيرة العدد . فاذا قل العدد ، فالقوى العلمية لا تجدى نفعا يذكر فى هذا الصراع الضخم . ولم ينج توينبى فى نظره الى المسالة الاسلامية ، من داء الحضارة الغربية المتوارث ، وهو التفرقة بين الأجناس ، وان اتحدت العقائد . فلذلك عد الترك ، لأنهم ترك ، جزءا منفصلا عن « القومية العربية » ، كما فعل ذلك بفارس ، وباكستان ، والهند ، وسائر بلاد افريقية وغيرها ، لأنهم جنس غير عربى الأصل ، هذا مع تمام تنبهه الى ان الاسلام يوجب على المسلمين أن يكونوا أخوة ، لا يفرق بينهم اختلاف فى جنس ، أو لغة ، أو وطن .

ولكن لو كان توينبى أعاد النظر وهو برىء من داء قومه فى التفرقة العنصرية ، لعلم ان الأمر كان على غير ما يتصور ، وعلى غير ما يراه اليوم فى ظاهر أمر هذا العالم الاسلامى ، بعد البلاء الذى نزل به من مكايدأهل جلدته وملته . فكل أمة دانت بالاسلام من غير أهل جزيرة العرب الذين خرجوا على عهد

أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية ، وسائر خلفاء الاسلام من بعدهم ، كانت بين أحد أمرين : اما أن تدين بالاسلام ، ثم لا تلبث أن تطرح ماضيها كله من لغة ودين ، ثم تتخذ العربية لغتها والاسلام دينها ، وتخالط العرب مخالطة تامة ، حتى يذهب الجنس كله أو أكثره الا بقايا قليلة ويدخل في العروبة ، كما حدث ذلك في العراق والشام ومصر ، وبلاد المغرب كلها الى أرض الأندلس واما أن تدين بالاسلام ، وتعد العربية لغتها الأولى ، وتحتفظ بشيء من لغتها ، كما كان الأمر في فارس والسند ، وبعض قبائل الترك والأكراد وغيرهم ، في كل مكان تعالى فيه الأذان ، وتلي فيه القرآن . ولكن هذه اللغات الممتنعة ، لم يعصمها امتناعها من أن تفقد شخصيتها التي كانت لها في جاهليتها قبل اسلامها ، فانقلبت اللغة الفارسية القديمة ، الى الفارسية الحديثة ، ونصف معجمها وأساليبها وأوزانها آت من العربية ، حتى صارت لسانا آخر غير اللسان الجاهلي . وكذلك الأمر في لغة الترك والأكراد ، وسائر اللغات في آسيا وفي افريقية . وتستطيع أن تسمى هذا « تعربا » ، لأن هذه اللغات قد صارت ذات نسب قريب بالعربية ، من حيث فقدت كل لغة من هذه اللغات أكثر خصائصها الجاهلية ، والزمت نفسها الدخول في عربية « القرآن » .

ولم يكن الذي منع هذه اللغات أن تزول وتحل محلها العربية ، كما تم ذلك في بلاد العرب التي نعرفها اليوم ، كالعراق ومصر ، وشمال افريقية ، أي المغرب كله ، والسودان ، أن أهل هذه اللغات حين أسلموا استمسكوا بجنسياتهم ولم يريدوا عنها حولا . كلا ، ولكنهم فقدوا الأسباب التي أتيحت للبلاد التي صارت عربية خالصة . فمن هذه الأسباب قلة هجرة القبائل العربية الى هذه الديار ، ونزولها في قراها المنتشرة ومدنها وعواصمها ، كما نزلت في مصر والعراق والشام وسائر بلاد افريقية ، ولا سيما في أول الفتوح ، وتتابع نزولها بها جيلا بعد جيل . ومن الأسباب أيضا أن شبابها لم يكد يفارق لغة قومه الى عربية القرآن ، حتى جذبته الحواضر الاسلامية الكبرى ، كبغداد ، ودمشق ، والفسطاط ، وبلاد المغرب الى الأندلس ، ففارق أرض قومه في طلب العلم ، وفي طلب الجاه ، وفي طلب الثروة والسلطان ، فلم تتأصل هناك طائفة تكون لها الغلبة في تحويل اللسان من فارسي مثلا ، الى عربي محض . ومع ذلك ، فان يكن آلاف من أبناء الفرس قد هاجروا ، واندمجوا في العرب حين هاجروا فان سيادة العربية ، عربية القرآن ، قد هاجرت بآلاف من الألفاظ ، فعربت اللغة الفارسية القديمة حتى أحالتها عن الوجه الذي كانت عليه في جاهليتها .

ومع ذلك ، فهذه البلاد جميعها ، من حدود الصين الى آخر المغرب ، ومن أقصى الشمال الى أقصى الجنوب ، قد أخرجت آلافا مؤلفة ، في فترة قصيرة جدا ، من أفذاذ علماء العربية ، وفقهاء الديانة ، وبلغاء الكتاب ، ونوابغ الشعر ، وأعلام الفاتحين ، وأخرجت كل متفرد في باب من أبواب المعرفة الانسانية ، وكل مذكور مشهور في ناحية من نواحي الحضارة ، بلا تمييز مبني على الجنس في شيء من ذلك كله ، بل جميعهم ينتمي الى عقيدة واحدة هي الاسلام ، والى لغة واحدة ، هي لغة الاسلام ، وهي العربية . والجنس العربي نفسه ، لا يجد ما ينتمي اليه غير هذين : هذه العقيدة الواحدة ، وهي الاسلام وهذه اللغة الواحدة ، وهي لغة الاسلام ، بلا فرق في ذلك .

ومصطفى كمال أتاتورك ، الذي زعم توينبي أنه قدم بالشعب التركي خدمة كبرى للعالم الاسلامي ، بمحاولته حل مسألة « الاستغراب » ، باتخاذ الأفكار الغربية دون تحفظ ، ومن بينها « القومية » ، قد أساء الى الشعب التركي غاية الاساءة ، لأنه عاق سير التاريخ ودمر بنيان الماضي ، وجعله ركاما على الطريق يسده ، وأنزل بالعالم الاسلامي نكبة كبرى ، بفقدانه عضوا من أعضائه الذين حملوا العبء قرونا متطاولة ، بلا تململ ، بل بصبر وقوة ودماء تسيل . ولو كان مصطفى كمال عاقلا مدركا لما ينبغي أن يفعل ، لما حاول ما حاول من تدمير اللغة التركية ، وتدمير العقيدة التي ينتمي اليها الترك وانشاء شيء

يقال له «القومية التركية» كان سير التاريخ يقتضيه أن يحول الشعب التركي مرة واحدة الى اتمام العمل الذي تم نصفه ، وهو جعل اللغة التركية و المتعربة ، لغة عربية خالصة ، وجزءا لا يتجزأ من « القومية العربية» التي لا قوام لها الا بالاسلام ، والذي ينتمي اليه التركي بنفس القدر الذي به ينتمي اليه العربي، وأيضا ، فالذي فعله مصطفى كمال ، لم تكسب به تركيا شيئا ، بل فقدت ماضيها، وشلت حاضرها ، وهددت مستقبلها ، وصارت كأنها تائه متحير في بادية يطوقها سراب من آمال لا يمكن أن تتحقق ، وتوينبي نفسه يعرف هذا ، وكلامه دال عليه ، وان كان مما يكبر عليه أن يقوله صراحة . وكل بلد اسلامي ، انحلت عراه التي تربطه بالعرب مهدد أن يصير الى نفس التيه الذي وقعت فيه تركيا، اذا ابتلى بمن يقوده الى هذه المتاهة ، كما ابتليت تركيا ، والخطر اشد استحكاما وتهديدا لبعض الأجناس التي كانت مندمجة في بلاد عربية ، اذا هي حاولت ان تقتدي بتركيا، فتنتزع نفسها من تاريخها العريق في الاسلام والعربية . ونحن ، أهل القومية العربية ، ملزمون بأن لا ندع شيئا يغرى بعد اليوم أحدا على أن يهلك نفسه في هذا التيه ، لأن هلاكه أيضا هلاك لنا غدا ، عرفنا ذلك اليوم أم لم نعرفه. ولا سبيل الى نجاتنا ونجاتهم الا بأوبتنا جميعا الى « القومية العربية » ، أى الى الاسلام الجامع لكل جنس منا في أخوة واحدة ، وعقيدة واحدة ، والى اللغة العربية ، لغة الاسلام ، باصرار كامل على تحطيم جميع العوائق التي تحول بيننا وبين هذه الغاية . وسأبين هذا بعد قليل .

واذا كان توينبي قد فزع ، بعد حديثه عن المسألة التركية ، من أن يرى العالم العربي مفككا مقسما الى عشرين دولة مستقلة ، ويرى هذه التجزئة أمرا يدعوه الى الاسف ، كما يأسف على تفرق ما سماه الامبراطورية الاسبانية الامريكية!! - اذا كان توينبي قد فزع ، فينبغي أن نكون نحن أشد فزعا ، لا من تجزئة العالم العربي وحده ، بل من تجزئة العالم الاسلامي ، الذي هو الصديق الحاضر العتيد بتراث ثلاثة عشر قرنا من الأخوة ، ولم تكد تؤثر في شعوبه وجماهيره كل المكايد التي دبرت ، ولا النكبات التي نزلت ، وعلى رأسها نكبة انفصال الدولة التركية عن الشعوب العربية ، أو على الأصح ، محاولة الدولة التركية ان تفصل الشعب التركي عن اخوته من الشعوب العربية .

وقد تنبه توينبي الى اللغة الفصحى ، وأنها هي الرباط الوثيق الذي يمنع البلاد العربية من التفكك، من شواطىء الأطلسي في المغرب الى حدود فارس الغربية شرقا عند شواطىء الخليج العربي ، ومن حلب والموصل شمالا ، حتى الخرطوم وعدن ومسقط وزنجبار جنوبا ، ولم يلق بالا الى الذي سماه « لغة التخاطب » ، وهي اللغة العامية، لأنه يعرف أن أيسر الجهد والصدق والفهم ، قادر على أن يجعل الفصحى هي « لغة التخاطب » العامة أيضا ، وان بقي للعامية آثار قليلة متفرقة في طبقات الناس بعد ذلك . وكلامه دال أيضا على معرفته تمام المعرفة أن اى محاولة لاتخاذ « لغة التخاطب » في كل منطقة من هذه المناطق واستبدالها بالفصحى ، مؤد بلا ريب الى أن يتفكك العالم العربي ويتجزأ الى عشرين دولة مستقلة ، يعيش بعضها في عزلة تامة عن بعض . وتوينبي معذور ، حين يعد اللغة الفصحى ، هي « اللغة الدينية » لجميع البلدان الاسلامية ، حتى تلك التي لا تستخدمها في التخاطب . ومن العبث أحيانا افهام العقل الأوربي بعض الحقائق التي لا تطابق ما يتصور ، كما أسلفت . فاللغة العربية ، أو اللغة الفصحى ، ليست « لغة دينية لجميع البلدان الاسلامية » ، حتى تلك التي لا تستخدمها في التخاطب ، كما يقول ، بل هي لغة القرآن ، ولغة الحديث ، اى لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث هو مبلغ للقرآن ، ومبين عنه . والفرق بين الكلامين شديد الخطر .

وذلك أن لفظ القرآن وهو « كلام الله » ، المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما هو ، وكما انحدر الينا بالتواتر والتوارث الذي منع عن اى لفظ فيه أن يدخله تغيير أو تبديل ، مرتبط أشد ارتباط لا بعقائد المسلم وعباداته فحسب ، بل بتشريعه واقتصاده ، وعلمه ، وفلسفته ، وحروبه ، وجهاده، بل بتفاصيل حياته اليومية ، وخطرات نفسه ، ولمحات تفكيره، وآداب معاشرته ، لصديقه، وزوجه، وولده ، وأهله ، وعشيرته ، فلا يكاد يوجد شيء في

حياة الانسان المسلم الا وله فى القرآن هدى هو نص أو هدى هو استنباط . لا فى خاص أمره ، ولا فى عام أمر المسلمين ، ولا فى علاقة المسلمين بالأفراد من غير أهل ملتهم ، أو الأمم التى لا تدين بدينهم ، بل فيما هو أقل من ذلك شأنا ، وما هو أعلى وأشرف. وفى كل ذلك يلتمس النص ، وتستنبط من النص أحكام للوقائع الحادثة التى تجد فى حياة الناس ، وللاستنباط أصول ضابطة ، بها يتبين الناس حين يختلفون ، أى شىء من أحكامهم المستنبطة هو الذى يقبل فيه الاختلاف ، وأيها الذى لا يقبل فيه الاختلاف ، لأن لفظ القرآن العربى يأباه . وكذلك الشأن فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذا صح عندنا من الوجوه التى يصح بها الحديث،وعلم تصحيح الحديث ومعرفته ، من العلوم التى انفرد بها المسلمون ، وجاءوا فيها بما لم تأت بمثله أمة من الأمم الى يوم الناس هذا . والذى صح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو بمنزلة القرآن ، فى الهدى ، بل هو أوسع ، لأن حديثه صلى الله عليه وسلم هو البيان عن القرآن ، فيه تفصيل ما أجمل القرآن ، وايضاح ما أبهم ، واستثناء ما استثناه الله، وزيادة مازاده الله بالوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم . وهو فى كل ذلك يتعلق بكل صغيرة وكبيرة فى حياة الفرد المسلم ، وفى حياة الجماعة ، وفى روابط هذه الجماعة ، وروابطها بغيرها من الجماعات.

وقد أحببت أن أختصر هذه الصفة ، لأعطى القارىء طرفا من المعرفة ، بصفة ما تفرق فى كتب الفقه ، وعلم الكلام ، وكتب الآداب ، وكتب الأحكام، وكتب الفلاسفة المسلمين ، وسائر ما كتب المسلمون فيه من فن وعلم ، كل ما فيها منتزع من لفظ القرآن ولفظ الحديث باستنباط قائم على أصول ضابطة لا مثل لها فى منطق أو غيره . ومثل هذه الصورة فى لغة القرآن والحديث ، لا تكاد تتضح لرجل مثل توينبى ، لأن عهده بالتوراة والانجيل ، أنهما كتابان معزولان عن هذه الحياة ، من حيث هما نص شامل لتفاصيل المعانى التى يحتاج اليها البشر فى جميع معاملاتهم اليومية ، وفى خاص شؤونهم البادية والمستورة ، الى آخر ما ذكرنا قبل ، فهو لا يرى « القرآن والحديث » ، الا من خلال معرفته بكتابى الدين المسيحى ، فيرى القرآن كالاناجيل مثلا ، اخبارا وعظات ، وشيئا يتلى فى بعض الصلوات ، والتقيد بلفظه غير مفهوم عنده على الوجه الذى نعرفه نحن من التقيد بلفظ القرآن ولفظ الحديث ، فى استنباط الاحكام .

فالأمم المسلمة ، سواء أكانت عربية اللسان والأصل ، أم كانت غير عربية اللسان والأصل ، لا ترى القرآن الا على الوجه الذى حاولت بيانه فيما سلف ، وأستغفر الله من التقصير ، وهى لا تعد اللغة الفصحى ، أو اللغة العربية ، «لغة دينية» اى لغة للعبادات والرسوم، كالذى عند طوائف أهل الكتاب، بل هى عند جميعهم لغة المسلمين التى لا يستغنى أحد من الناس كائنا ما كان عن اتقانها ، والتوسع فى معرفتها ، والضبط لعلمها ومادتها وفقهها ، مادام منتسبا الى شأن من شؤون الحضارة التى يعيشها ، فهو محتاج اليها اذا كان فيلسوفا منطقيا ، من الوجه الذى كان الفقيه والأصولى محتاجا اليها ، وسواء بعد ذلك أكتب فى الفقه أو الفلسفة باللسان العربى ، أم بلسانه هو غير العربى . وهذه هى السيرة التى كان عليها علماء الترك والفرس والهند وسائر الأمم الاسلامية التى لم تتخذ العربية لسانها الذى لم يبق لها لسان غيره ، واما شبهة « **اللغة الدينية** » ، فان الداعى اليها ، ان صح ما أقول ، هو أن الدعاة والمبشرين والمستعمرين لما دخلوا بلاد الاسلام فى افريقية والهند وغيرهما ، ورأوا الطفل الصغير ، والجارية ، والغلام ، والرجل ، كلهم يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، ويتلوه فى صلاته خاشعا باكيا ، ورأوا أن بعضهم لا يعرف من العربية الا ما يحفظ من القرآن ، ولا يحسن يقرأ شيئا بالعربية الا القرآن ، ظنوا أن ذلك كذلك لأن اللغة العربية « لغة دينية » ، وهذا سخيف جدا عندنا بالطبع ، وذلك لأن كل مسلم ، عربيا كان أو غير عربى ، يعلم

علما يقينا أن القرآن كلام الله ، وأن مجرد تلاوته عبادة يثاب المرء عليها ، وحفظه عبادة أخرى ، وفهمه عبادة ثالثة ، والتفقه فى معانيه عبادة رابعة، والنظر فى كتابته عبادة خامسة، ولكل شىء من هذه العبادات ثواب ، فضلا عن أنه كلام الله الذى يفارق كلام البشر من كل وجه ، وهو من الله واليه، يتعبد المسلم بأن يستودعه صدره ، لأنه كلام ربه . وعلى هذا المسلم بعد ذلك أن يتعلم ان استطاع لغة القرآن ، ليفهمه ويتفقه فيه ، وذلك خير ما يفعل ، والا اقتصر اذا لم يستطع ، على معرفة دينه بلسانه هو ، ودينه هو ما يتضمنه القرآن والحديث ،مما يشمل كل صغيرة وكبيرة فى حياته الخاصة أحيانا ، وفى حياته العامة أحيانا أخرى ، على الوجه الذى أسلفنا بيانه ، وهذا كاف فى الدلالة على أن اللغة الفصحى ، أو اللغة العربية ، ليست « لغة دينية » ، بالمعنى الذى تعد به « اللاتينية » مثلا « لغة دينية » .

وينبغى لنا أن ننعم النظر فى شأن القرآن ثم فى شأن الحديث ، لأنهما كانا أول فاتحين فتحا كل أرض من بلاد العالم الاسلامى كله ، ما بين أقاصى الصين الى أقاصى المغرب ، وما بين قلب أوربا الى أواسط افريقيا وجزائر الهند ، فى قارة آسية ، فصار للقرآن دوى بين أرجاء هذا العالم قرونا متطاولة ، يعرفه من شهد بقاياه فى مساجد مصر نفسها منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، والذى لم يخطئه رحالة أوربى كتب رحلته فى أرجاء العالم الاسلامى منذ مئة سنة أو ما قبلها ، فهذا الركاز الباقى بعضه قائما فى العالم الاسلامى ، خليق أن يدفع العرب الى حمل أمانة القرآن بحقها مرة أخرى ، وحمل أمانة لغة القرآن بحقها مرة أخرى ، والاقدام بلا تردد على انجاز أكبر فتح ، برد جميع البلاد الاسلامية غير العربية الى القرآن كلام الله ، واتمام ما بدأه الآباء من تعريب نصف اللغة ، كما فى التركية والفارسية والأوردية وغيرها ، برد هذه الألسنة الى لسان واحد هو اللسان العربى ، بعد أن أزاله عن مكانه مكر العدو وطغيان الغازى .

وكأنك ترى هذا توسعا فى الأمل الممدود مع الخيال، وأقول لا ، بل هو حقيقة كادت تكون واقعة، ثم حالت بينها الحوائل ، ولماذا ينكرها المرء الا من حب العجز واطراح الهمة ؟ وأسائلك هل كان انجليزى واحد فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، يخطر بباله ان لغته سوف تكون لغة عالمية تطبق ما بين مشارق الأرض ومغاربها ؟ ، كلا بلا ريب ، فما الذى جعل هذا ممكنا للانجليزى بلا تراث الا طغيان الغلبة والسيطرة ، وجعله غير ممكن لى ، وأنا أملك ما هو أفعل من الغلبة والسيطرة ، وهو دين الله الذى يتساوى فى حمل كتابه والقيام بلغته العربى وغير العربى ؟ وليتأمل امرؤ ينكر هذا بعض ما حدث للغته . فان لغة العرب كانت لها السيادة فى افريقية وآسيا ، فزاحمتها لغات الغزاة حتى زحزحتها عن مكانها ، أو أزالتها من الألسنة ، ووضعت فى ألسنة الافريقيين والآسيويين ألسنة انجليزية أو فرنسية ، أو هولندية ، أو برتغالية ، وقد شهدنا بالأمس القريب اجتماع الافريقيين وغيرهم فى مصر ، فكان خطيب كل أمة يخطب بالانجليزية أو الفرنسية ، وآباؤه الى عهد قريب كانوا يكتبون بالعربية ويؤلفون بها ، ويقولون فيها شعرا ، هذا على قلة التواصل كان بينهم وبين بلاد العرب لبعد المسافات ، وغلبة الاستعمار ، والذى حدث هو أن الاستعمار قد جعل حرب اللغة العربية أحد أسلحته ، كما جعل التبشير سلاحا لمحو الاسلام من افريقية ، وهو يصرح بهذا اليوم غير موارب فيما يكتب عن افريقية .

فاذا صح ذلك ، وهو صحيح ، فاللغة الفصحى التى ذكرها توينبى ، وبين أنها هى الرباط الوثيق الذى يمنع العالم العربى من التفكك ، اذا أراد مريد أن يدخلها فى معركة مع اللغة العامية التى تؤدى الى التفكك ، كما تنبه اليه توينبى أيضا ، فان هذه المعركة لا يمكن أن تعد معركة أدبية مجردة من العوامل السياسية والدينية ، الخفية والظاهرة . وكل من يريد أن يدس هذه الحقيقة فى ضباب من الغموض ، والألفاظ المبهمة ، والمغالطات ، فانه امرؤ مريب يكتم أمرا يرمى اليه ، لآفة ينطوى عليها. أما الدعاة الى ذلك كصبيان المبشرين أمثال سلامة موسى، ولويس عوض ، ومن سأذكرهم فيما بعد ، فهؤلاء قد تجردوا لهذه الحرب السياسية التى اتخذت الدعوة الى العامية سلاحا يراد به تفتيت قوة متجمعة كانت، أو قوة هى فى طريقها الى التجمع ، وكل الذين يغفلون عن هذه المعارك ، ويعدونها معارك أدبية (!!) اى معارك الفاظ ! انما يخاطرون بمستقبل أمم قد ائتمنوا عليها . والى اللقاء فى الأسبوع القادم .

محمود محمد شاكر

الشكل هو الموضوع

للدكتور : رشاد رشدى

مشكلة الشكل والموضوع لها ارتباط وثيق بمعنى العمل الفنى - وبرسالته - وبصلة الفن بالحياة وبما يسمونه الفن للفن وبغير ذلك من المسائل التى تثار كثيرا هذه الأيام .. ولقد قضيت بعض الوقت هذا الصيف أقرأ أعمال الكاتب والناقد الفنى **(والتر باتر)** - وهو من أكثر من أثروا فى الاتجاهات الفنية فى القرن العشرين بكتاباته التى كتبها فى أواخر القرن الماضى . حتى أن بعض النقاد ومنهم (هربرت ريد) يعتقدون أن (باتر) مسئول عن الحركات الفنية التى ظهرت فى القرن العشرين أمثال التأثرية والتعبيرية والتجريدية وأن بروست وكافكا وبارتوك وسترافنسكى وبيكاسو وهنرى مور قد تأثروا جميعا بباتر .

و (والتر باتر) وهو أستاذ الكاتب المعروف (أوسكار وايلد) ويعتبره البعض مسئولا عما أصاب أوسكار وايلد من ضياع فى أواخر حياته ، ولكن باتر لم يكن فى تهور وايلد . وكانت أيضا تنقصه الشجاعة التى كان وايلد يتمتع بها أحيانا الى حد الجنون .

ولكن المسألة ليست مسألة شجاعة وتهور - أوجبن وتردد - فالمبادىء الفنية التى نادى بها وايلد ، هى نفس المبادىء التى نادى باتر . ولكن وايلد فى تحمسه لها حاول أحيانا أن يبسطها وأحيانا أخرى يصوغها صياغات متطرفة .. ومن هنا كان الخطأ - وسوء الفهم الذى أوقعه فى مشاكل اجتماعية أدت به الى الهلاك .

فمما لا شك فيه أن مسائل النقد وعلم الجمال مسائل دقيقة للغاية لا ينبغى أن تعرض على الناس فى بساطة أو تبسيط ، لأنه من السهل اساءة فهمها .. ولا ينبغى أيضا أن يتعرض لمثل هذه المسائل الدقيقة المتصل بعضها بالبعض الآخر اتصالا عضويا وثيقا الا من كان على المام دقيق شامل بالفن والأسس والأعمال الفنية ، وكل ما يمت الى هذه الأمور من قيم حضارية سواء فى الماضى أو فى الحاضر .

ومع ذلك كله فلا يسلم من كان على علم بالفن وأصوله من أن يسىء الناس فهمه، فبرغم ماكان عليه (باتر) من حيطة وحذر فى معالجته للنقد الفنى، ورغم تحفظاته الأكاديمية العديدة فى أحكامه،ورغم شروحه العلمية المستفيضة لنظريته ، أو بالأحرى - نظرته النقدية ، تجده يشتهر بأنه ناقد جمالى لا يعنى الا بالجمال المطلق - ولا يهمه الا الفن للفن .. وكل ذلك لأن (باتر) كان يهتم بشكل العمل الفنى .

ولكن من يدرس كتابات (باتر) عن الشكل والموضوع ، يدرك أنه لم يكن ناقدا جماليا على الاطلاق - بل ربما كان أقرب الى الناقد الأخلاقى - كما يقول اليوت - منه الى أى مذهب آخر من مذاهب النقد ، ويدرك أيضا أن مسألة الفن للفن خرافة لم يقل بها (باتر) .. ويدرك فوق هذا وذاك أن علاقة الشكل بالموضوع ، هى أدق وأعمق وأهم مما يتصور الكثيرون من الناس ، ومن النقاد الذين يأخذون الامور بظاهرها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص .

كتب باتر يقول :

ان الميزة الأولى فى أرفع درجات الأدب وفى أحطها هى الصدق .. ففى الادب العادى - غير المتميز يكون الكاتب عادة مخلصا للواقع كما هو - أما فى الأدب الرفيع فيكون الكاتب مخلصا لرؤياه

للواقع – وبذلك يكون الصدق فى الأدب العادى هو الصدق فى نقل الواقع – أما فى الأدب الرفيع ، فالصدق هو الصدق فى التعبير عن رؤيا الكاتب للواقع ٠

ولقد كان البحث عن التعبير الصادق بهذا المعنى يشغل باتر دائما وكان يحاول أن يجد التعبير المناسب للرؤيا ٠٠ أو الشكل المعادل للموضوع ٠٠ وكان يتابع هذا البحث فى كل ما يكتب ٠٠ فى دراساته عن النهضة ، فى كتبه عن أفلاطون والأفلاطونية – فى دراساته الاغريقية ٠ فى كتابه ماريوس الابيقورى ٠ وفى كتابه المسمى «تقديرات»

ولقد سأل فرانك هاريس باتر مرة عن أجمل ما فى الحياة فأجابه :

« اشياء كثيرة – ولكن أهمها فرحة الخلق الفنى ٠٠ أن أكتب جملة واحدة كاملة – يكسو فيها اللفظ الفكرة كساء كاملا ، فلا يكون ضيقا بحيث تبدو الفكرة عارية بعض الشيء ، او متسعا أكثر من اللازم ، او منمقا أكثر مما يجب ٠٠ فيجذب الانتباه للفظ دون الفكرة – بل يجب أن يكون اللفظ مساويا للفكرة » ٠

ولم يكن باتر يبحث عن اللفظ الرقيق أو السهل أو الواضح ٠٠ أو القوى بل عن اللفظ الذى يتفق مع المعنى ٠٠ ولذلك لم تكن هناك بالنسبة له لغة صالحة ، ولغة غير صالحة – فأية لغة صالحة ما دامت تؤدى الغرض المطلوب منها – اى التعبير عن رؤيا الكاتب ٠٠ ولذلك فهو يعرف الأسلوب ، على انه ايجاد الشكل المناسب للموضوع – أو بمعنى آخر – التعبير المناسب عن احساس الكاتب بالواقع ٠

التعبير – اذن – لا بد أن يكون نسبيا فى جميع الأحوال٠ بمعنى ان التعبير اللائق فى بعض الأحيان، قد لا يكون لائقا فى أحوال أخرى ، وهكذا ٠٠

ويذهب (باتر) الى درجة أخرى فى الوضوح فى تعريفه للتعبير ، فيصفه بأنه التوفيق بين محدد ما فى عالم الفكر وبين معادلة فى عالم اللغة ٠٠ ولكى يتم هــذا التوفيق لا بد للمحدد – اى الفكرة أن يتحول الى شيء موضوعى يدركه الحس ٠٠

ومن ثم كانت عظمة الفن عند اليونان – اذ كانت أفكارهم قابلة دائما للتحول الى كائنات موضوعية يدركها الحس ٠

ومطابقة الشكل للموضوع مطابقة كاملة – أمر ضرورى فى نظر (باتر) وهو يصف الأعمال الفنية التى لا يطابق فيها الشكل الموضوع مطابقة كاملة بأنها « رموز حملت أكثر مما تطيق أن تحمل – فهى بذلك ليست الا وسيلة من وسائل التلميح بفكرة ما زالت فى عالم الظلال ، لأن العمل الفنى لم يستطع التعبير عنها تعبيرا كاملا ٠

وهذا ما يعيب الكثير من شعر (وردزورث) و (فيكتور هوجو) حيث الأفكار لم تتحول تحولا كاملا الى صور – ولذلك يستطيع الانسان أن يتبينها كأفكار ٠

والعمل الفنى الكامل – فى نظر باتر – هو الذى لا يمكن أن تتبين فيه الفكرة منفصلة عن العمل نفسه كمحسوس موضوعى ٠ اذ أن الفنان قد أغرق أفكاره الذهنية والروحية فى الشكل الحسى – كما فعل (كيتس) أو كما يفعل الاغريق عادة – ولذلك فلا أثر للفكرة مهما بحثنا عنها ٠

وهنا فقط عند ما يزول كل أثر للفكرة كفكرة مجردة أو عند ما يتم تحويلها الى شكل حسى ٠٠ يكتسب العمل الفنى شخصيته المميزة له ،ويصبح عالما قائما بذاته ٠٠ والتصارع بين الفكرة والشكل الحسى غالبا ما ينشــأ عنه ضرر قيم للعمل الفنى نفسه ٠

ونجد هذا التصارع أحيانا فى أعمال (ليوناردو دافنشى) – اذ كان يسمح لأفكاره بأن تتصارع مع حواسه مما يحدو به الى أن يغوص أكثر مما يجب تحت الشكل الخارجى للأشياء – وهو الذى يبدأ فيه الفن وينتهى ٠٠ ولكن فى أغلب الأحيان كان ليوناردو يعرف كيف ينتظر اللحظة السعيدة – لحظة الخلق الفنى ٠٠ حيث تكتمل الكلية الكيماوية ٠٠ وتنقلب الفكرة الى لون وصورة ٠

وهذا الاتحاد بين الفكرة ومعادلها أو الموضوع والشكل ليس مسألة آلية ٠٠ بمعنى أن الفكرة تخطر أولا فى عقل الفنان ثم يترجمها الى الشكل ٠٠ فالوحدة بين الموضوع والشكل وحدة عضوية ٠٠ لان الشكل والموضوع هما فى الحقيقة شيء واحد يخلقه عقل الفنان فى لحظة واحدة ، هى لحظة الخلق الفنى حيث يعمل الخيال فى عدالة تامة على مزج الفكرة بشكلها المعبر عنها بحيث يصبح الاثنان وحدة لا يمكن أن تتجزأ ٠

ومن ثم كان السر فى التعبير الفنى الكامل ـ فهو يكمن فى الوحدة التامة بين الموضوع وشكله فى العقل الخلاق نفسه ٠٠ ويقول باتر فى مقاله عن الأسلوب ٠٠ « ان الشكل الكامل هو الذى يصبح بطريقة أو بأخرى الموضوع الذى يعبر عنه » ٠

فالمسألة اذن ليست مجرد البحث عن الشكل المناسب للموضوع ـ أو المعادل للفكرة ـ أو التعبير السليم عن الرؤيا الداخلية للكاتب ـ انما أولا وقبل كل شيء ٠٠ خلق الشكل المعبر ٠٠ هذا ما يجب أن يكون هدف الفنان ٠٠ الشكل الذى هو فى الحقيقة الموضوع لأننا لا نستطيع أن نميزه فى الواقع عن الموضوع ٠

ولهذا السبب كان باتر أول من نادى بأن الموسيقى هى أرقى الفنون ، لأننا فى الموسيقى كما يقول ٠٠ لا نستطيع أن نميز الشكل من الموضوع أو الفكرة من التعبير » ٠

وقد كان (باتر) يرى أن كل الفنون تحاول أن تسموا الى مستوى الموسيقى ، لأنها دائما تسعى الى الغاء التمييز بين الموضوع والشكل ٠

الوحدة بين الشكل والموضوع اذن هى مقياس التفوق فى الخلق الفنى ٠٠ فحيث نستطيع أن نميز الموضوع عن الشكل كما فى الفن الدينى فى العصور الوسطى عندئذ ندرك أن العمل الفنى مازال فى حالة كفاح للتعبير عن افكار لا يستطيع التعبير عنها ٠٠ أو أن الشكل لا يتناسب مع الموضوع الذى يعبر عنه ـ أو أن الموضوع لا يمكن صياغته كعمل فنى ٠٠

والنتيجة فى كل هذه الأحوال أن العمل نفسه لم يكتمل بعد كعمل فنى ٠٠ ولكن عندما لا نستطيع أن نميز الشكل من الموضوع كما فى أعمال فلوبير وأكثر أعمال دافنشى حيث الشكل المعبر هدف فى ذاته ٠٠ هنا العمل الفنى الكامل ٠

وهذا ما يفسر ما يقوله باتر فى نهاية مقاله المعروف عن الاثرى الأعافى وتكلمان : ـ

« دعنا نعرف الشعر بأنه كل خلق أدبى يجلب المتعة عن طريق شكله فقط دون الرجوع الى موضوعه » ٠

فهذا القول لا يصدر عن ناقد جمالى يؤثر الشكل على الموضوع ـ او يفرض بان الواحد يمكن أن ينفصل عن الآخر ٠٠ بالعكس ان ما يعنيه باتر هنا هو أن فى العمل الجيد يجب أن يكون الشكل كافيا لكى يمنحنا المتعة المنشودة ـ فاذا حصلنا على هذه المتعة فى الشكل على حدة والموضوع على حدة فهذا يعنى أن التعبير فى حد ذاته خاطىء لأنه قد سمح للموضوع أن يكون له كيانه المستقل عن الشكل وللشكل أن يكون له كيانه المستقل عن الموضوع ٠

فالشعر يجلب المتعة عن طريق شكله فقط ٠٠لأن هذا الشكل يطابق الموضوع مطابقة تامة ٠٠ لأنه فى الحقيقة قد استوعب الموضوع فأصبح كل شيء ولا شيء غيره ٠

ولكن لكى يتضح هذا المفهوم للشكل يجب أن ناخذ فى الاعتبار نظرية النسبية فى الفن ـ وهى التى نادى بها باتر والتى بنى عليها كل نظرياته الفنية ٠

فعند ما يتكلم باتر عن الشكل بهذا المفهوم لايعنى الشكل المطلق المجرد ـ أو أى شكل ٠٠ أو حتى الشكل الذى يحتوى الموضوع كما يحتوى الاناء الماء

انه يتكلم عن الشكل الملائم ٠٠ عن الشكل المعين الذى بدونه لا يستطيع الموضوع المعين أن يصبح ذا دلالة أو معنى ٠٠ انه فى الحقيقة يتكلم عن ايجاد المعادل الحسى لرؤيا الكاتب الداخلية ـ الشكل المعبر ـ وهو هذا الشكل الذى قام بمسئولياته كاملة نحو موضوعه ٠

« د ٠ رشاد رشدى »

دراسة وجودية في ٤ مقالات :

فلوبير .. مثلا !

بقلم : انيس منصور

(١) الرجل

ليس الاديب الفرنسى جوستاف فلوبير (١٨٢١ ١٨٨١) هو الذى يهمنى من الدرجة الأولى . وانما هو « مناسبة » فقط لكى اصل الى ما اريد . والذى اختار الاديب فلوبير هوالفيلسوف الوجدانى سارتر . وأنا اخترت سارتر لكى اشرح مذهبه الجديد في النقد الأدبي . وهو المذهب الذى أجده قريبا جدا الى ما اريد ان اختار من مذاهب النقد الأدبى .

والى جانب ، فالأديب فلوبير اديب نموذجي فى حياته وفي ادبه وفي عصره وفى اختلاف النقاد عليه وفى تطبيق المذهب النقدى الجديد عليه . ولهذا فالأديب فلوبير « مناسبة ممتازة » .

ولابد أن اتقدم ببعض الأسئلة . ومن خلال وضع هذه الأسئلة يظهر الطريق الذى اريد ان اسلكه من هذه المقالة الأولى حتى اصل الى نهاية المقالة الرابعة .

واتساءل : هل العمل الادبى هو وسيلتنا الى فهم الأديب ؟ هل العمل الادبى هو وسيلتنا الوحيدة ؟ هل العمل الأدبى هو المصباح الذى نمسكه ونضىء به جوانب الأديب ، تمهيدا لمعرفته ؟ هل الأديب نفسه هو المصباح الذى يلقى الضوء الوحيد على العمل الادبى ؟ هل الأديب واعماله الادبيه هو كل ما نريد ؟ والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الا يوجد لها دخل قوى أو ضعيف فى تنشئة هذا الأديب وبالتالى في ظهور اعماله الأدبية ؟ هل اعماله الأدبية تعتبر صدى او رد فعل لظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية قائمة ؟ الا نتخذ من اعماله الأدبية سجلا للعصر وبيانا لموقفه من الأحداث ؟

أو بشكل آخر : هل ندرس الادب والاديب باعتبارهما أو باعتبار كل منهما ، شيئا «منفصلا» تماما عن الظروف التاريخية ؟ وحتى لو حرص الأديب على أن يكون منفصلا عن الأحداث ، مهما كانت الاسباب ، الا نرى أن هذا الانفصال والحرص عليه ، موقف في حد ذاته يستحق الدراسة والتامل؟ هل لو كان الأديب من رايه أن الأديب أو الفنان يجب ان يعيش لأدبه فقط او لفنه فقط ، وأن ما يسميه بالحياة الادبية ، أو الادب للأدب أو الفن للفن ، ألا نرى أن هذا الشعار فى ذاته يجب ان ينبهنا اليه ويشدنا الى فلسفته لكى نغير تقييمه بشكل آخر ؟

هذا الرجل فلوبير كان حريصا على أن يعيش لادبه ، او يعيش ادبه ، وان يقفل أبوابه فى وجه المجتمع ، وأن يسد منافذه حتى لاتهرب مشكلة اجتماعية الى أذنه .. الا نرى اليوم أن هذا موقف شاذ . وأن فلوبير قد رفض عن عمد ، ولأسباب اقتصادية ، أن يقف مع الناس والى جوارهم ، لكى يوفر لنفسه هذه العزلة البورجوازية وهذه الانفصالية المثالية ؟ . لاشك أن موقف فلوبير ، وانسحابه من المجتمع وحرصه على عزلته وعلى هدوئه الفنى يستحق ان ندرسه وأن نشير اليه وأن ننقده . وأن ننقد معه في نفس الوقت ، كل فهم أدبي أو نقدى يحاول أن يأخذ الأديب بما يقول ، دون أن يفسر ويعلن مالا يريد الأديب أن يقول . فهذا الأديب فلوبير لم يقل كثيرا ، ولكن مهمة الناقد هي أن يكشف الأديب ، وأن يبينه ، ولا يهم

بعد ذلك أن يقال اننا فضحناه .. لأن الانعزال نفسه فضيحة يتستر عليها الأديب . والبعد عن الجماهير ، عن فلسفة وعناد ، عار لا يصح السكوت عليه ..

* * *

والآن أقدم الرجل النموذجى ..

انه جوستاف فلوبير . ريفى فرنسى . ابوه رجل ثرى . طبيب جراح . وابنه الاكبر طبيب ايضا . وقد ولد فلوبير الصغير وعاش معظم سنوات حياته فى أحد المستشفيات يرى الجثث وقد تكاثر عليها الذباب .. نفس الذباب الذى يقف عليه وهو ياكل وهو يشرب .

وأم فلوبير ابنة طبيب ايضا .. وأصدقاء فلوبير الصغير من الأطباء ايضا . واول رجل سافر معه الى اسبانيا فى رحلة خارج فرنسا كان طبيبا ..

وتكرار كلمة طبيب في السطور السابقة تبين الى اى حد تاثر فلوبير بالجو الطبى التشريحى . بجو الناس الذين يرون الموت ولا يخافونه . يقلبون فى الجثث بلا اشمئزاز . يغسلون أيديهم من الدم دون قرف ..

لقد ولد وعاش بين ناس لهم أعصاب من حديد بارد .

وان كان جوستاف فلوبير لم يكن من اصحاب الاعصاب الجامدة أو الباردة . فهو قطعة من النار في اناء من صفيح او اناء من حديد متين .

ولم يشا الأب ان يجعل فلوبير يدرس الطب . ولو شاء لرفض الابن . لقد بعث به الى باريس ليدرس القانون . ولم يحب هذا الابن دراسة القانون . فميوله قد اتجهت الى شىء آخر . هو التامل والقراءة .. والقراءة اكثر . وكان يصاب بسرحان شديد عندما يذهب الى قاعات البحث . وعندما كان يلقى عليه الاستاذ معلومات عن الرومان والتاريخ الرومانى – كان فلوبير يغيب فى أحلام يقظة كلها تدور وتتمرغ في حلبات الصراع الرومانية وفي الحمامات الرومانية وفي الحدائق الرومانية .. لقد كان الطالب فلوبير ينسج من خياله أساليب غريبة للهرب ..

وعرف الهرب بصورة اعنف . لقد كان يسقط على الارض والدم ينزف منه . يسقط فجاة ويصرخ ويتحول الى قطعة من الخشب . وقد وصف الاطباء هذا المرض فى ذلك الوقت بانه نوع من الصرع . وقد تكرر هذا كثيرا . وادرك الأب ان ابنه لا يستطيع ان يكمل دروسه ، فسحبه من باريس واعاده الى الريف .

ولكن نوبات الصرع هذه قد جعلت فلوبير الصغير يخاف مخالطة الناس ، فهو يتوقع ان يسقط بين ايديهم بين لحظة واخرى . فانعزل . واحس بانه ضعيف وانه قد بلى . وربما كان حرص فلوبير على ان يجعل صوته غليظا اثناء الكلام كان معناه انه يريد ان يبدو قويا متينا . وحرص ايضا على ان يتبختر أثناء مشيته وأن يباعد بين ذراعيه وجسمه ، كانه ديك رومى ، كل ذلك ليؤكد حركات التعويض التى يقوم بها لكى يبدو اقوى مما هو عليه ..

وقد عاونه ثراء ابيه على ان يلزم البيت وان يجد كل ما يريد من مال وكتب . فلم يكن فى حاجة الى ان يعمل ، ولا الى ان يصحو فى ساعة مبكرة في اى يوم ، ولا الى الاستعجال في النشر او الكتابة . لقد كان ينام على مهل وياكل على مهل ويقرأ ويكتب وينشر على مهل . فهو ليس في حاجة الى النشر السريع .. لأنه ليس في حاجة الى الشهرة . وليس في حاجة الى المال الذى تاتى به الشهرة . ثم انه ليس واثقا من نفسه تماما .

وكان من عادة الاديب الصغير ان يستدعى اصدقاءه ليقيموا فى بيته اياما ليقرأ لهم ما كتب . وقد تعلم هذه العادة ، او اضطر اليها ، وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وبقيت كذلك الى آخر ايامه .. وبقى شىء آخر هو حساسيته الشديدة لأى نقد . فقد كان لا يقبل النقد . واذا سمعه فانه يثور وقد يسقط على الارض مغشيا عليه . وكان اصدقاؤه يجدون صعوبة شديدة في معاملته وفى مناقشته ولكن الشىء الوحيد الذى كان يحميه منهم هو الحبوب المهدئة التى كان يتعاطاها باسراف شديد . وكانت هذه الحبوب من عوامل برودته النفسية والعقلية .. والجنسية ايضا !

ومن مظاهر التانى والتانق فى أسلوب فلوبير انه كان يمضى الساعات في اختيار الجملة او اختيار

اللفظة الواحدة . وكان يقرأ جمله بصوت مرتفع لنفسه ، ولأصدقائه ايضا ، وكان يرى ان الاديب يجب ان يكون لاسلوبه النثري موسيقى من نوع خاص . وكان يحرص ، في شيء من الهوس ، على الا يكرر اللفظ الواحد في الصفحة الواحدة مرتين . وكان يجد فى هذا صعوبة شديدة وصعوبة لامبرر لها ايضا . فهو يستخدم كلمات بسيطة ومحدودة وهو حريص على ذلك . فكيف يستخدم الكلمات المحدودة مرة واحدة فى قصصه الطويلة التى تتكرر فيها المعاني والمواقف دون أن يلجأ الى نفس الالفاظ؟ ولكنه كان يحاول باصرار طويل .

وفى خطاباته الى عشيقته «لويز كوليه» اعترف لها بأنه يعانى آلاما شديدة بسبب كلمتين فى احدى قصصه !

وهو صادق فيما يقول ..

ورغم حرص الاديب فلوبير على ان ينعزل تماما وعلى ان يقفل النوافذ ـ على حد قوله ـ حتى لا تهب عليه رياح المجتمع ، كان كثير التنقل . فقد سافر الى معظم الدول الاوروبية . وسافر الى الشرق الاوسط . سافر الى مصر في ديسمبر سنة ١٨٤٩ وسوريا وتركيا واليونان . وله حكايات بعث بها من مصر الى أمه والى عشيقته والى أصدقائه ـ طريفة ، فهو يصف فى القاهرة هؤلاء الرجال الذين يصبغون شفاههم بالأحمر وخدودهم أيضا . ويعرون بطونهم ويرقصون كالنساء ، والصاجات في ايديهم وحولهم وقف رجال آخرون يدقون على الطبول . وقد استخدم فلوبير كلمة «الدربكة» .. ويتقدم رجل يقبل هؤلاء الرجال من خدودهم ومن بطونهم . ولم يخف فلوبير اعجابه برشاقة وليونة هذه الاجسام . وان كان قد اعترف بقرفه من الرجل الذى يقلد مظاهر المراة . ويصف الرحلة من النيل الى اسنا والى قنا . وفى اسنا تردد على بيت سيدة تركية اسمها«كجك هانم»ووصف ليلة مثيرة امضاها فى بيتها .. حيث الرقص والغناء والخمر والنوم .. الخ . وكان بيتها محاصرا بالحراس ، حتى لا يهجم اللصوص عليه . وقابل رجال الدين الاقباط فى مصر وناقشهم فى كثير من النظريات الدينية .. ومن ذلك الوقت بدأ فلوبير يفكر بصورة جادةفى قصة « عذاب القديس انطون» ذلك الراهب المصرى الذى اقام سنوات في الدير ، ثم ظهر له الشيطان يغريه ويعذبه .. ولكنه قاوم وعاد الى الدير ..

وكثيرا ما أعلن فلوبير انه لو قدر له ان يختار عصرا من العصور ليعيش فيه لاختار العصورالقديمة جدا ايام كان الرجال اكثر رجولة ، والنساء اكثر صدقا ،والطبيعة اوسع ،والانسان اهدا .. ولاختار ان يعيش فى مصر وفى مدينة اسنا بالذات ، وان يشارك «كجك هانم» حياتها !

لقد كان فلوبير يعيش فى عصر الرومانسية الفرنسية . عصر الحساسية الشديدة والمرض النفسى ، والهرب من الحاضر الى الماضى ، ومن الجديد الى القديم .. والهرب من فرنسا الى بلاد بعيدة ، الى دنيا غريبة ، الى التاريخ القديم .. عبر النهر وعبر البحر ..

ولكن فلوبير اعتبره النقاد الاب الشرعى للواقعية فى الأدب الفرنسى . لانه استخدم الاسلوب البسيط الخالى من التهويمات والبهرجات اللفظية والتراكيب الحارة ، وانتقى موضوعاتو مضمونات فى حياة كل الناس . وهو لذلك كان واقعيا ولم يكن رومانسيا غارقا او مغرقا فى الخيال .

ولكن فلوبير هذا الكائن الحساس لم تهزه الدنيا الواسعة ، ولا المجتمع المتغير ، ولا الثورة الصناعية ولا النهضة العملية والفلسفة الاشتراكية . وانما تأثر بشدة بحوادث فردية هزته بعنف ، ولم يسكن هذا الاهتزاز طول حياته .

فقد حدث وهو فى الرابعة عشرة ان راى سيدة تكبره بعشر سنوات ، واقتربت منه السيدة وهمست في اذنه بشىء .

واستقر هذا الشىء فى قلبه . والسيدة كانت عشيقة رجل يهودى ينشر المؤلفات الموسيقية . وقد ظل فلوبير صديقا للرجل وصديقا لهذه السيدة ، ولكن من بعيد . فقد ظلت هى الحب الوحيد فى حياته . ولم تشا هذه السيدة ان تخون عشيقها مع فلوبير . فقد كانت تشعر بشىء عميق جدا من الامتنان لهذا الرجل الذى لم يكن مخلصا لها .. وقد انتهت حياة هذه السيدة بان دخلت مستشفى الامراض العقلية ولكن صورتها وحبها والحلم بها ظل مرفرفا حول فراش فلوبير . وقد أمضى فلوبير سنواتيحلم بها ويضع راسها تحتاللحاف ويتخيل ويهتز وترتفع درجة حرارته ويصرخ !

وجاءت آخر حياة فلوبير ايضا ..

لقد عرف الشاعرة « لويز كوليه » ، وهى سيدة

ممتلئة القامة فيها عناد ولها شخصية ،وفيها رجولة ايضا .

وكانت لويز هذه عشيقةالفيلسوف فكتور كوزان والشعراء هيجو والفريد دي فني والفريد دي ميسه! .. وقد حصلت على اربع جوائز في الشعر . ومن المؤكد أن شعرها كان متوسط القيمة. ولكن عشاقها هم الذين رفعوا قدرها . واحبت هي الاديب فلوبير وكانت شديدة الغيرة . وكان هو شديد الحساسية والمراهقة . والخطابات التى بعث بها فلوبير تدل على سذاجته وعلى مدى المراهقة العنيفة التى تمزقه . ومن الغريب انه يحاول ان يعذبها وان يجرح كرامتها فيروى لها مغامراته العاطفية والجنسية الاخرى . وانقطعت الصلة بينهما بعض الوقت . ثم عادت بعد ذلك .. وكانت مشكلته مع هذه الشاعرة انها تروى كل شيء لأى احد .. وكان يتصور أن الذى يدور بينه وبينها سر . فقد كان لايلتقى الا قليلا جدا . وكان ضعيفـا من النـاحية الجنسية . وكانت هى عنيفة .

وكان يتوهم فلوبير ان بيوت اهل الريف هى المصنوعة من زجاج فكل الناس يعرفون اسرار كل الناس. كل الناس يرون بعضهم البعض. ويحرصون على ذلك . فاذا عرفوه اتخذوا منه موقفين هامين : أن يؤيدوه أو يعارضوه .. ولا توجد حلول وسطى فى الريف .

ولاحظ فلوبير ان لويز هذه ايضا عندها كل طباع اهل الريف .. ونسى انه هو ايضا بموقفه منها قد اكد انه ريفى جدا وانه ليس جريئا بما فيه الكفاية، وانه اقل واقعية مما يدعى !

هذان حادثان خطيران فى حياته ، اما الدنيا التى حوله ، اما الثورة على البورجوازية ، والثورة على الاستعباد الاقطاعى وعلى الاستغلال الصناعى ، كل ذلك فلا أثر له فى كل مؤلفات فلوبير .. وان كان هو فى بعض الاحيان قد ابدى مخاوفه وقلقه وفزعه . ولكنه لم يتجاوز الخوف الى الشرح أو الى اتخـاذ موقف . ولم يترك الفزع ليفكر أو يتأمل . ولكن الموقف الوحيد الذى لم يغيره هو ان يسد الباب فى وجه الريح ، وان يسد النافذة فى وجه الضوضاء ، وان يفتح عينيه على اعماقه ، وان يغمس قلمه فى جراحه الشخصية ، وان يكتب على مهل !

ووقع حادث أدبى هام فى حياته ايضا ..

فعند ما عاد فلوبير من رحلته الى الشرق الاوسط كان ممتلئا بقصة «عذاب القديس انطون» فكتبها واستدعى اصدقاءه ليقرأها عليهم بنفسـه . واقام عنده الاصدقاء أربعة أيام حتى فرغ من قـراءة هذه القصة . وكان قد اتفق معهم الا يقاطعوه اثناء قراءتها ، وسألهم وهو يضرب المنضدة بيده :

ما رأيكم فى هذه القصة ؟ وقبل ان يجيب واحد منهم ابتلع بعض الحبوب المهدئة ، وقبل ان تأتى هذه الحبوب بأى اثر اجاب احد اصـدقائه قائلا . رأيى أن تلقى بها فى النار ولا تتحدث عنها بعد ذلك!

وقال صديق آخر : ما لنا ومال قديس يعـذب نفسه فى الصحراء . انه ارتضى هذا العذاب. والعزل. وهو لذلك يستحق كل ما يقع له . فهو الذى اختار هذه الحياة . او هـو الذى اختار الانسحاب من حياتنا .. لماذا لا تكتب عن انسان يأكل الخبز . ويتعب فى الحصول على الخبز ..

وقال ثالث : لماذا لاتكتب قصيدة السيدة دلامار؟ وفجاة برقت عينا فلوبير وقال : والله فكرة !

وكانت قصة السيدة دلامار حديث المـدينة منذ ذلك الوقت .. وهى قصة امرأة خدعت زوجها دون ان يعرف ثم ماتت فى النهاية . وهى امرأة عاشت فى الخيال وعندما صدمها الواقع قـررت ايضا ان تفرض الخيال على الواقع . وفشلت فانتحرت !

وقصة السيدة دلامار هى نفس قصة فلوبير التى كتبها بعد ذلك باسم «مدام بوفارى».

وكما اخترت فلوبير لكى يكون نموذجا فى المناقشة سأختار أيضا قصة « مدام بوفارى » لان فلوبير يرى انها هى حياته ، فقد قال مرة : مدام بوفارى هى انا !

والنقاد يرون انها من اروع اعماله الادبية ، ومن اكثر اعماله دلالة على فلسفته .. وانها بداية المذهب الواقعى فى الادب فى فرنسـا وفى العالم ـ رغم انه كانت هناك مذاهب واقعية كثيرة من الرسم والنحت وكانت سابقة على فلوبير .

واذن فسأتحدث أيضا عن قصة «مدام بوفارى» باعتبارها صورة للمؤلف نفسـه . صورة اختارها هو نفسه وارتضاها النقاد أيضا كنموذج لعمل ادبى متكامل ، أو كامل لا نظير له فى الآداب العالمية .

وقد عكف فلوبير على كتابة هذه القصة ففرغ منها في اربع سنوات ..

وظهرت هذه القصة مسلسلة في احدى المجلات .. ثم ظهرت في كتاب سنة ١٨٥٧ وصادرتها السلطات الفرنسية فى ذلك الوقت.وصادرت بعدها بستة اشهر ديوان الشاعر بودلير « ازهار الشر » وكانت هذه هى أول مرة تصادر فيها ديوان شعر بتهمة الخروج على الآداب والدعوة الى الانحلال الخلقى .

اما حجة السلطات الفرنسية فى مصادرة قصة «مدام بوفارى» فهى انها قصة فاجرة وان بطلتها منحلة وان المؤلف يدعو الى تمزيق القيم الاخلاقية وهدم الروابط العائلية .

ولكن المحامى دافع عن المؤلف بقوله : ان البطلة فاجرة . هذا صحيح . ولكن هذه البطلة لقد لقيت اقسى أنواع العقاب . فكأن المؤلف يريد أن يعاقب الفجور والاستهتار .

وافرجت المحكمة عن المؤلف وعن القصة ..

ولكن السبب الحقيقى ليس هو اقتناع المحكمة، وانما هو توسط بعض افراد اسرة نابليون . وهذا ما يرويه فلوبير فى رسائله لأخيه . فقد وعده أحد افراد اسرة نابليون بالتوسط ، وتوسط . ونجح. وظهرت القصة . وانتشرت فى فرنسا . واحس كل انسان بانها تمسه هو بشىء ، مما يدل على أن المجتمع في فرنسا كان منحلا وان هذه القصة كانت صورة صادقة له .

ان عشيقة لويز كوليه قد ثارت عليه، فقد أدركت ان الكثير من ملامحها وتصرفاته هى بالضبط ملامح وتصرفات مدام بوفارى ..

واحس اصدقاؤه ايضا انهم مرسومون فيالقصة.

ولما ادرك فلوبير ان كل اصدقائه — بل كل عصره — يريد ان يقاسمه هذه القصة اعلن انه لم يستمد هذه القصة من حياة أحد ، وانما هو استمدها من العصر كله .. وان مدام بوفارى هذه ليست الا هو شخصيا . هو الفنان الذى يعيش كتبه . أو يعيش ادبه . ويحاول ان يعرض افكاره على عصره ، دون ان ينفتح لعصره ..

ولكن فلوبير لم يثبت على آرائه كثيرا ..

فقد ورث عن ابيه أرضا وبيتا . وقد نزل عن هذا البيت لبعض افراد اسرته ..و لم يبق له شىء مطلقا . وحاول استثمار امواله . ولكنه خسر كل امواله . واضطر اقاربه الذين عاونهم الى انيعاونوه ولكنه رفض .

واقترحت عليه الاديبة جورج صاند ان تعاونه ماديا ، ولكنها لم تعده بالكثير . ولكنه اعتذر . وبدأ فلوبير يشكو من جشع الناس ، ويشكو من سفالة الاثرياء وهو ابن الطبقة المتوسطة .

وقبل ان تنتهى حياة فلوبير بلحظات احس بأنه سيموت .. فجمع ما تبقى لديه من قوة ومن خيال فنان ومن ارستقراطية جريحة . فارتدى ملابسه كلها . وجلس الى مكتبه وفتح النافذة لأول وآخر مرة . ونادى الخادمة لتحضر له طعام الافطار. ولما عادت الخادمة كان قد فرغ من كتابة كلمتين على ورقة صغيرة فوق مرآة هما : جوستاف فلوبير ..

ورآته الخادمة يحنى رأسه لها كأنه يشكرها .. ولا بد انها شعرت بشىء من السعادة لهذا التغيير المفاجىء الذى طرأ على سيدها . ولكن الانحناءة طالت والتصقت رأسه باسمه . ولم يسمع صرختها المفاجأة المذهلة .

لقد مات بنفس الهدوء ، وكان آخر شخص قابله ورآه هو : جوستاف فلوبير !

« انيس منصور »

السيَّاب

للدكتور : أحمد كمال زكي

- ١ -

فى نهايات ديسمبر من عام ١٩٦٤ بلغنا نعى الشاعر الانسان بدر شاكر السياب ، وكان قد توفى بعد أن نفض يديه نهائيا من كل الاتجاهات المشبوهة التى ورطته فيها آماله . وقبل ذلك بالنتى عشرة سنة قطع آخر التزاماته الفكرية بالعملاء الحمر وان ظل مذبذبا بين ايمانه بحتمية انتصار الانسان العربى وهتافه مع الهاتفين فى « مجلة شعر » البيروتية .

ان هذا الشاعر الذى ولد فى جيكور بالعراق عاش طفولة بلورها بالم فى كل ما قصد به ابنه « غيلان » عن نهر القرية « بويب » وسنابل القمح فيها واشجار التوت وكذلك عن تراث الاجداد وحكايات الاجداد ، ثم تفتحت هذه الطفولة على شباب قلق متخوف يشعر بالغربة دائما . واستمر هذا الاحساس يلازم الشاعر ، لاسيما بعد أن انتقل الى المدينة ورآها ـ كما رصد رؤيته فى قصيدته مرثية الآلهة ـ هرة سوداء تأكل بنيها !

وكانت أربعينات هذا القرن قد أقبلت وروافد الثقافة المتضاربة تتجمع فى المخيلة الشعرية العربية فتهزها وتثيرها وتخرج بها من حدود التقليديات المثقلة بالصنعة والتكلف ، واستطاع السياب أن يجد فيها حاجته الى الفكرة الرشيدة عندما تبدأ بالذات الفردة ثم تصعد الى المجموع فى محاولات رومانسية كان يدعمها بلند حيدرى ونازك الملائكة ونحوهما .

وعندما جاوز السياب هذه المرحلة التى توجها بديوانه « أزهار ذابلة » وكان قد التقى فنيا بستيفن سبندر الانجليزى ـ داعية الماركسية الذى سبها فيما بعد ـ بدا أكثر فهما للواقع وان كان شعوره بالضياع قد تضخم الى حد كبير . وتكشف مجموعته الشعرية « أساطير » عن هذه البلبلة مؤذنة برمزية غلبت على شعره فيما بعد ، وقادته الى ايقاعات فذة .

لقد صدرت « أساطير » سنة ١٩٥٠ وفى سنة ١٩٥٢ صدرت « حفار القبور » القصيدة الكبيرة التى تعد من أخطر أعماله ، فاذا الشاعر نمط فريد متطور أبدا ، متطلع دائما الى ما عساه يهديه الى حقيقة نفسه التى أراد السل أن يمزق رئتيها وأبت هى الا أن تتمسك بالحياة لانها كانت ترغب فى الحياة !

وبين هذين القطبين .. حب الحياة برغم تغربه فيها ، ومقاومة المرض الذى يعصف به رثى السياب الانسانية أفجع رثاء ، بادئا بقريته الضائعة جيكور ومنتهيا بالرجال الجوف الذين يشبهون رجال توماس اليوت تماما .

ويبدو أن وقوع السياب على اليوت ـ بصفة خاصة ـ كان منتهى ما يطمح فيه ، أو لعله صادف كل هوى من نفسه . هو حقا قرأ لروبرت بروك وادجار ألان بو وايديث ستيويل وغيرهم ، الا أن اليوت علمه كيف يجتر المرارة والضياع واليأس ، وكيف يعبر عن روح تعجز عن كل شىء حتى الألم ، ومن هنا وسم بميسمه .

هو القدر ...

غير أن شاعر « الارض الخراب » هيأ للسياب السبيل الى أن يغير أداته الفنية تغييرا ظهر فى كل الشعر الذى قاله بعد صدور ديوانيه « أزهار ذابلة » و « أساطير » واغلب هذا الشعر مجموع فى « أنشودة المطر » و « منزل الاقنان » و « المعبد الغريق » .

وتغيير الاداة أى خروجه على النظام البيتى مع

انه أقدر محدث على التقفية الكلاسيكية – لم يكن يعني أكثر من أنه عرف القالب الشعري الذي يتسع لأزمته . وهو يستعين عليه بالتهاويل والاقتباسات والايماءات والرموز الاغريقية والبابلية والعربية – نادرا – حتى ليحير القاريء بالتهميشات والشروح . نرى ذلك على سبيل المثال فى قصيدته « من رؤيا فوكاى » التي كتبها عام ١٩٥٥ متأثرا فيها ايديث سيتويل وتوماس أيليوت على حد سواء ، ولما كان يعرض فيها لقنبلة هيروشيما فقد لجأ الى الاساطير اليابانية والصينية ، ولم يصده ذلك في الوقت نفسه عن رؤى هوميروس وشيكسبير ولوركا ، علما بأنه زاوج فيهما بين التكنيك العمودى والتكنيك المرسل .

– ٢ –

بدا هذا الشاعر – السياب – حياته عربيا مخلصا ، وطنيا ، وختمها عربيا مخلصا وطنيا . وبين البدء والختام سنو الضياع ومحاولة البحث ، ولعل هذا يلخص حياته أدق تلخيص ، وقبل أن نحاول تقييم شاعريته داخل الاطار نقول انه فى تردده بين الشيوعية والتموزية – كنزعة شعوبية سادت وحمل لواءها القوميون السوريون ومجلة شعر البيروتية – كان يصور غربته فعلا أو كان يحاول أن يهتدى الى الايمان من بعد كفره .

انه عندما كان ماركسيا وقف موقفا سلبيا بالنسبة لتقسيم فلسطين ، ولكنه عندما تبين انه فى صف واحد من الشعوبية التى راحت تحارب العرب – كما يقول هو بنفسه منذ مقتل عمر بن الخطاب الى يومنا هذا – أعلن رفضه التام لكل مالا يحفظ للعرب قوميتهم .

على أن المقاومة التى جوبه بهـا من جانب الشعوبيين – نذكر منها على سبيل المثال – مقاطعتهم لرائعته المومس العمياء – أوقعته فى أكثر من مازق معيشى . وكانت رغبته فى أن يحيا تدفعه دفعا الى أن يستسلم أحيانا لأعداء الحياة . فهو يعلن ولاءه لطغاة العراق الذين دحروا ، وهو يخاصم « الآداب » البيروتية من أجل « مجلة شعر » الممولة بمال الأبالسة ! وفى سنة ١٩٥٩ يرضى أن يسلكه أسعد رزوق في المجلة المذكورة مع الفينيقيين من أمثال يوسف الخال وأدونيس ، وهكذا ..

واذا كانت شعوبية الماركسيين قد تولى هو فضحها وفضح أساليبها فى مقالاته التى نشرها بعنوان « كنت شيوعيا » ، فان التموزية التى بقيت عنده الى عام ١٩٦٠ مرتبطة بانسانية يختلط فيها الكفر باليقين ، تحتاج فعلا الى من يكشف عن جانب الخير فيها .

وتبدو التموزية عنده بصفة خاصة فى قصائده « جيكور والمدينة » ، و « المسيح بعد الصلب » و « مدينة السندباد » ، و « سربروس فى بابل » و « أغنية شهر آب » و « رسالة من قبر » ، وتكون غالبا مختلطة بفكرة الاستشهاد المسيحى أحيانا ، وأحيانا بعذابات سيزيف ، وفى كل الأحيان معبرة عن رغبته فى الحياة أولا وأخيرا .

والحقيقة أننا بقراءتنا تلك الاشعار – بعمق – نحس شيئين : أولهما سخطه على المدينة ذلك السخط الذى يبدو كما لو كان لعنة على الانسانية كلها مع انه يحب أن يرثيها أو يرى أن من واجبه رثاءها ، وثانيهما تبشيره بربيع ما أو دعوته للاله الخرافى « تموز » أن يبعث من خلال برك الدماء وأنقاض العفن .

ويلعب المطر دائما دوره الاساسى فى نزعته التموزية ، وقد انقطع هذا المطر عندما ثار العراق وثار هو على ثورته عاملا مع المخربين الذين تمكنوا من اقصاء الشرفاء . وكان اشتغاله مع أمثال يحيى قاسم الذى جعل جريدة « الشعب البغدادية » منبرا يهاجم منه المخلصين العرب هو النكسة « القومية » التى صاحبت اتصاله بمجلة شعر ، وبسقوط المطر يحقق مغزى الاسطورة التموزية ويرضى فى الوقت نفسه أصحاب تلك المجلة والعاملين فيها ضد البقاء العربى !

واذا كان ثمة من يرى أن الطور التموزى عنده كان فى حقيقته امتدادا للطور الانسانى الذى صدر فيه عن روائعه « حفار القبور » و « المومس العمياء » و « الاسلحة والاطفال » ، و « النهر والموت » وان يكن فى الاخيرة التى نشرها عام ١٩٥٦ نصف تموزى ، فان نوع الحافز يحسم الدعوى . فهو فى غير هذه موتور يريد أن يعيش بأى سبيل ، وهو فى هذه متفاعل مع أحداث بلده ووطنه العربى الكبير عندما يهاجم أشكال الاستعمار والمستغلين . ولقد توج جهاده بقصيدته الكبيرة « بورسعيد »

متجاوبا باخلاص مع معركة مصر الظافرة ،وبالاحرى التي اصبحت علما على ديوانه «انشودة المطر» وكان قد قالها وهو مهاجر في الكويت وهي :

أصيح بالخليج : ياخليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه النشيج :
ياخليج
يا واهب المحار والردى
وينثر الخليج من هباته الكثار
على الرمال رغوة الأجاج والمحار
وما تبقى من عظام بائس غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار
وفى العراق الف افعى تشرب الرحيق
من زهرة يربها الفرات بالندى
واسمع الصدى
يرن في الخليج
مطر
مطر
مطر
في كل قطرة من المطر
حمراء او صفراء من أجنة الزهر
وكل دمعة من الجياع والعراه
وكل قطرة تراق من دم العبيد
فهى ابتسام فى انتظار مبسم جديد

والعجيب ان اسعد رزوق تبنى هذه القصيدة فى « مجلة شعر » ليجعلها أساس تموزيات الشاعر ، على الرغم من انه يصرح بانها لا تظهر الأسطورة التموزية عنده بوضوح ، ولم ينس بطبيعة الحال « النهر والموت » فجعل منها نموذجا كسائر تموزياته لتصوير فكـرة البعث والنهوض مستقلا احساسه الكريم ـ احساس الشاعر ـ وهو يحمل العبء مع البشر كما حمله من قبل سيزيف الاغريقى ليؤيد وجهة نظره حتى وان جعلت الاسطورة التموزية كامنة بالقوة فى القصيدة !

معنى هذا أننا لا نحدد ظهور نزعته القومية ـ فى حدود المفاهيم الانسانية العربية ـ بعام ١٩٦٠ وانما نحددها ببدايات الشاعر ، وهى تصاحبه على مدارج ايامه اثناء تنقله هنا وهنالك . ان «انشودة المطر» مثلا تصوير صادق لآمال العراقيين الاحرار ، وهى فى اتجاههـا لا تخرج عن طريقه الذى سـنه فى « الاسلحة والاطفال » وان يكن فى هذه ناعيا على الحضارة التى تطيح بالصغار وتبيد أعشـاش العصافير وتحطم الابتسامة والرجاء :

اسى موجع أن يموت الصغار
اسى ذقت منه الدموع
أجاجا ومثل اللظى فى الفم
واحسست فيه اشتعال الدم
بعينى من نازفات الضلوع
عويل من القرية النائية
وشيخ ينادى فتاه الغريق
بهذا الطريق وذاك الطريق
ويسعى الى الضفة الخاليه
يسائل عنه المياه
يريدون الا تتم الحياه
مداها والا يحس العبيد
بان الرغيف الذى ياكلون
امر من العلقم !

وعنـدما نذكـر هذا يجب الا ننسى موقفه من المدينة بصفة عامة ، وولعه بالقرية ، وحملته على الحروب وعلى من يبذرون النار ويزرعون البساتين بالجثث ، يقول فى « بورسعيد » مصطنعا الثقفية الكلاسيكية :

حييت موتى واحيـاء وأبنيـة
مستشهدات أو استعصين اركانا
والنار والباذرون النار كم زرعوا
من كل ثكل لعزرائيل بسـتانا
من كل وجـه لطفل فيـه زنبقة
تدمى وتلثم فيـه الريح شريانا

كذا يجب الا ننسى موقفه الصـلب من الواقع المظلم الذى عاشه العراق فى عهده البائد قبل عام ١٩٥٦ واحساسه المخلص بان شيئا يجب ان يحدث

لانقاذ ارضه وان البشر يحتاجون الى بروميثيوس كانسان جديد ، مع ملاحظة انه استبدل به سيزيف فى الطور التموزى !

ولقد بشر بالسلام ، وعنى بالانســـان ، ومجد الكفاح البطولى الذى قدمه العرب فى كل شبر من ارضهم ، فكانت « يوم الطغاة الاخير » و « جميلة بوحيرد » و « رسالة من مقبرة » و « بورسعيد » وقصائد « قافلة الضياع »

انا سنمضى فى طريق الفناء
ولترقص أورام حتى السماء
حتى نروى من مسيل الدماء
اعراق كل الناس .. كل الصخور
حتى نمس الله ...
حتى نثور !

وعندما يرى ان الموت لصق الحياة ولا سبيل الى الفكاك منه ، يستنجد بموهبته مستمدا أساطير بلاده ليصرخ فى بورسعيد :

فليحرس الاحياء باب الحياه

يامرفا النور كونى مرسى لافكارى كونى لاشعارى وحيا

لقد خباتك فى عينى .. فانت قيثارى
والطين فم يمتص اشعارى الخضراء والحمراء
فلتصمدى يابورسعيد
يابوابة الحياة
يالغة الانسان !

وتعلو الصرخة ذاتها فيما بعد ، ولكن على قدر طاقته ــ فقد كان مرض الموت يفترسه جزءا جزءا ــ وذلك عندما يبلغه وهو فى مستشفى سان مارى بلندن نبأ مصرع قاسم العراق فيقول :

هرع الطبيب الى ــ آه لعله عرف الدواء
للداء فى جسدى فجاء

هرع الطبيب الى وهو يقول : اذا الى العراق .
الجيش ثار ومات « قاسم » اى بشرى بالشفاء ؟
ولكدت من فرحى اقوم .. اسير .. اعدو دون داء
مرحى له اى انطلاق
مرحى لجيش الامة العربية انتزع الوثاق
ياأخوتى بالله .. بالدم .. بالعروبة .. بالرجاء

هبوا فقد صرع الطغاة وبدد الليل الضياء
فلتحرسوها ثورة عربية صعق « الرفاق »
منها وخر الظالمون لان تموز استفاق !

فى هذه المرة كان تموز هو تموز سنة ١٩٦٣ يبشر بخير عربى دافق ، ويؤكد أصالة احساس شاعر كبير بالعروبة ، ويدحض زعم من زعم ذات يوم انه خائن :

انى لاعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون
ايخون انسان بلاده
ان خان معنى أن يكون فكيف يمكن أن يكون ؟

ــ ٤ ــ

وبعد ..

فهل اذا وقفنا هنا نكون قد أدينا حق الشاعر العراقى العربى علينا من الوفاء والتقدير ؟

لانظن ، فثمة صفحات عنه ستظل مطوية حتى ينشرها أولئك الباحثون عن الحقيقة . وستكون غنائياته الآسية التى يجمعها « منزل الأقنان » و « المعبد الغريق » فى قمة الأعمال الأدبية الكبيرة التى يجب أن تحفظها الانسانية على مدى الايام .

السياب فى هذه الصفحات يطلق آخر صرخاته راثيا نفســه ومتفجعا على عمره الذى عراه داء الموت من زهراته ، ويذكر زوجته وابنه الذى احتل جزءا من شعره ، كما يرصـــد لأشــراقه فى غربة المرض القاتل ، ويعلن عن استسلامه لآلامه كما استسلم من قبل ايوب ، ويشكر حبيبه الله الذى ابتلاه :

هداياك فى خافقى لا تغيب

هداياك مقبولة هاتها

اشد جراحى واهتف بالعائدين :

الا فانظروا واحسدونى فهذى هدايا حبيبى !

رحم الله السياب فى نومته تلك التى تنبا بها .. صباحها أول ليل الأبد ، ويمر به القوم مثرثرين ، ويقرأ احدهم شــعره وعندما يمر على قبره يقول وأين من هذا الرميم الشعر يدفق بالعواطف ؟

« احمد كمال زكى »

الفلاح في الشعر العربي

وتصوير شقائه

(٥)

بقلم: محمد عبد الغني حسن

تضم قصص البؤس والشقاء عند الفلاح قصصا وحكايات مؤلمة ، أصبح الشعراء بعد ثورة ٢٣ يوليو يحكونها ويجعلون منها موضوعا يحكى فيه الشعراء لأطفالهم أو يحكي الأطفال عن آبائهم وأجدادهم مآسيها التي احالتها وثبتنا الثائرة الى افراح وأغاريد .

فالشاعر فوزي العنتيل يجلس مع الكادحين في ليلة قروية ، يتسامرون ويثرثرون ، والليل يصغي في غير ملل الى حديثهم ، والنخل يخفق في حنان ناشرا اغصانه – أو سعفه – في القبة الزرقاء :

ومضيت أعصر من سنيني قطرة
بيضاء في افق الحياة القاتم

في الريف بين الكادحين يسوقهم
قدر ، وراء الكون ، فوق العالم

وخطا تمر على بقايا قصة
من دمع محروم وقسوة حارم

والشاعرة **روحية القليني** – وهي اول انسانة وجدنا لها شعرا في الفلاح – تجعل من ماضي ذلك المخلوق البائس موضوعا لقصص الكفاح يقصها الطفل عن جده الفلاح . وهي حين تلمس الريف وسنابل القمح التي تراقص – في مناجاة لذيذة – نخله الباسق ، والناي الذي يكسر صمت الدجى بعزيفه الشجي – لا تنسى ان تصف لنا ناحية كريمة من اخلاق الفلاح ، وكأنها بهذا ترد على الذين كانوا الجار في القرية لجاره ، وهي رعاية فقدناها اليوم في يلقون عليه التهم الظالمة بلا حساب . فتذكر رعاية المدن التي لا يحس فيها سكان الطبقة الواحدة في المبنى الواحد بعضهم بعضا ، وتذكر وفاءه وحفاظه على الدين ، وطهارة قلبه من الحقد ، وامتلاء كيانه بالحب – هذا الحب الذي وجدناه واضحا في شعر الشاعر **عبده بدوي** – تقول روحية :

الخير في بلدي على الضفات في حضن الخميله
والنيل يجري بين اسوان وقاهرتي الجميله
تتفرع القنوات منه فترتوي أرضي الأصيله
والطفل في مرح الطفولة كم جرى يلقى زميله
ليقص ماضي جده الفلاح أحقابا ذليله
قصص الكفاح مع الأباء وكل ما فيهم فضيله
والأم كم سهرت وكم عانت لكي ترعى الطفولة
وسنابل القمح التي رقصت مناجية نخيله
والناي في صمت الدجى يحكي ملاحمه الطويله
والجار يرعى جاره ويسير في صدق سبيله
وعلى الوفاء تجمعوا في ظل أنسام عليله
الدين هاديهم وفي اخلاقهم مثل نبيله
لا حقد في قلوبهم فالحقد عندهم رذيله
عاشوا على الحب الاصيل وما ارتضوا عنه بديله

ونلاحظ أن اللوحة الشعرية عند شعراء الفلاح والريف تتكرر فيها بعض وحدات – كما يحدث في الرسم الزخرفي حين يكرر الفنان وحدة معينة في أشكال شتى – يديرها الشعراء هنا وهناك ويديرون عليها المعاني المختلفة التي تتفق مع أهدافهم واغراض شعرهم . فالساقية ، والشادوف ، والفاس وسنابل القمح ، وجنى القطن ، والناي ، والكوخ ، وزهر الفول ، وزهرات القطن ، وحاملة الجرة وغروب الشمس ، وصياح الديكة ، والنخيل ، وجلباب الفلاح الازرق – كل هذه من الوحدات المتكررة والمناظر المكرورة المألوفة التي تلقانا دائما في اغلب الشعر الريفي .

وقد رأينا ـ قبل هذا ـ كيف تناول الشعر، صوت الناعورة ، فجعلوه أنينا تارة ، وجعلوه تارة بكاء على الفلاح واشفاقا لحاله ، وتارة بكاء على الثور الأسير المعمى الذى يدير الساقية .

أما الفأس فان الشاعر عبده بدوى يجعلها تنقب فى الأرض بضرباتها عن فكرة ، قائلا :

ضربنا على الليل أبوابه
فصاح الصباح على الربوة

وقمنا نعمق ضوء النهار
بفأس تنقب عن فكرة

والشاعر **محمود حسن اسماعيل** يرى الفأس ـ أو بالأحرى يد الفأس ـ حطبا يابسا يمر على الصخور فيحيلها الى أرض مزدهرة بالورود :

حملت فأسه من الغيب سرا
حير العقل كامن من صفاته

حطب يابس يمر على الصخر
فتزهو الورود فى جنباته

ثم يراها فى قصيدة « نبى جائع » من ديوانه « أين المفر » قطعة بلهاء من الحديد ، يجثو القدر لارادتها ، واذا مست حجاب التراب أورق من تحتها الحجر :

وبين يديه بلهاء الحديد جثا لها القدر
اذا لمست حجاب الترب أينع تحتها الحجر !

والشاعر **محمد العفيفى** يرى الفلاح ملهما الطيور تسبيحها ، وهو راكع فوق الفأس لا يمل :

أيها الفلاح الذى قيدوه
بقيود الأسى وطوق الجوع

الهم التسبيح الطيور وفوق الـ
فأس ما مل من طويل الركوع

فاذا انتقلنا الى جلباب الفلاح الأزرق الممزق ، رأيناه عند الشاعر محمود حسن اسماعيل :

توراة بؤس عليها نقرا العبر !

ونراه تارة أخرى عنده : (كفنا مزقت بوالى رفاته) ، وهما من التشبيهات الرائعة القوية التى يجيد أمثالها هذا الشاعر المحلق ، على حين نرى صفة هذا الجلباب عادية بغير تشبيه عند الشاعر الدكتور **عقيفى محمود** حيث يقول :

كل يوم يسبق الشمس الى الحقل العتيق
فى قميص حائل الزرقة مغفور الخروق !

وعند الشاعر محمد العفيفى حين يقول مخاطبا الفلاح بعد الذى فعلته له الثورة :

لن ترى جائعا على بطنك الـ
ـخاوى ثياب زرق الأسى ورباط

اما القطن وجنيه وجانياته ، وقد أبدع الشاعر خليل مطران وصفه فى قصيدة « هدايا العروس » وفيها يقول :

هبت صبيات المزارع بكرة
يخطرن بين السير والاسراء

من كل عاصية النهود ، بها تقى
مطواعة الأعطاف ذات حياء !

نادى بها البشراء : حى على الجنى
فغدت تلبى دعوة البشراء

والقطن موف ضاحك بيياضه
وصفائه من كدرة الغبراء

يندفقن مثل السيل من جنباته
ويخضن شبه البحر فى الأثناء

متغنيات من أهازيج الصبا
ما شاء وحى هوى ، وطيب هواء !

ولم تكن هذه القصيدة التى منها هذه الأبيات فى موضوع الريف ولا فى مجانى القطن ، ولكن مناسبتها كانت فى حفل زفاف .

اما زهرة القطن ذاتها فللشاعر محمود حسن اسماعيل فيها قصيدة عينية رائعة يقول منها :

حين ذاب الطل فى كاساتها
لؤلؤا يجرى على كف الشعاع

لثمت خد الضحى وابتسمت
كابتسام الطفل فى عهد الرضاع

وبدت صفراء تحكى غادة
ذبلت نضرتها يوم الوداع

تخفق النسمة فى أهدابها
خفقة العاشق فى ليل الزماع

فتراها فى الربا راقصة
زانها الضوء بزهو والتماع

ذات كأس اترعت شمس الضحى
ريقها من خمرة النور المشاع !

وتذكرنا هذه الصورة لزهرة القطن بصورة قائنة لزهر الفول نجدها عند الشاعر **مصطفى صادق** منذ أكثر من نصف قرن ، وتعد من الالتفاتات الأولى فى العشر الأوائل من القرن العشرين لجمال الطبيعة فى الريف المصرى ، وفيها يقول :

نائمات بروضها فى سرير
بين خز وسندس وحرير

هزها الفجر فاستفاقت كما تطرف
بعد الكرى جفون الصغير !

جال فيها الذى كما حير الدمع
دلال الهوى بأهداب حور !

زهر الفول ! أنت نضرة عمر
عطر من هوى الشباب قصير

تشبه الأرض جنة أنت فيها
زغب الريش ساقطا من طيور

ولو ان النجوم ذات قشور
لحسبناك بعض تلك القشور

وقد افتن زملاؤنا الشعراء فى تفتيق المعانى وتوليدها من كل شىء وقع عليه نظرهم ، أو سمعته أذنهم فى الريف المصرى ، فكل صوت يسمع هناك فهو ـ غالبا ـ أنين ونواح على سوء حالة الفلاح ٠

فصوت السواقى أنين فاجع اما على الفلاح ، واما على الثور كما رأيناه قبلا عند الشاعر محمود حسن اسماعيل ٠ وخوار الأبقار هو شكوى صاعدة الى السماء من تعس الفلاح وبؤس الضعفاء عند الشاعر فوزى العنتيل حيث يقول :

والنخل يخفق فى حنان ناشرا
أغصانه فى القبة الزرقاء

وخوار أبقار تصعد فى السما
يشكو اليها قصة الضعفاء ٠٠٠

وهديل الحمام هو بكاء على حالة الفلاح عند الشاعر العراقى أحمد الصافى النجفى حيث يقول من قصيدة حالية جيدة بعنوان « الفلاح » :

حتى الحمام عليك رق بدوحه
فله بحقلك رنة ونواح !

واذا كان انين الساقية وسجع الحمام هما أقرب الأصوات الى نغمة الحزن والتفجع ، وأكثرها ، ملاءمة لتكون أصوات بكاء على شقاء الفلاح ، فان خوار البقر هنا يعد نغمة نشاز عند الشاعر فوزى العنتيل ! وقد كان له منادح كثيرة عن هذه الصورة المزعجة ٠٠٠ !

اما الكوخ ـ وهو أحد الوحدات المتكررة فى اللوحات الشعرية الريفية ، فاننا نجده عند محمود حسن اسماعيل « حقيرا متداعيا » ، قد نامت النعمة عنه وعن صاحبه فى قوله :

وارث للمسكين عيشا أسودا
ان فى كوخ حقير متداع

نامت النعمة عنه ، وجفت
معدما لم يرعه فى مصر راع

عفرت ريح الأسى كسرته
وطوت نعماه دنيا الصراع

رقص الفقر على أكتافه
وهو جاث ٠٠٠ بين ذل واقتناع

وهو عند الشاعر فوزى العنتيل ترقد على جداره ظلمة ممسوخة مثل ظلاله المتشائم :

وعلى جدار الكوخ ترقد ظلمة
ممسوخة كظلاله المتشائم ٠٠ ؟

وهذا الظلام الكئيب الموحش على جدران كوخ الفلاح نجده عند **أحمد الصافى النجفى** ، ونجد بجانبه صورة لضعف الكوخ وتهالك بنائه ، حتى ليكاد سقفه يخر فى الليلة الماطرة ، وتكاد الرياح أن تطير به من مكانه حين تهب :

فى الليل بيتك مثل دهرك مظلم
ما فيه لا شمع ولا مصباح

فيخر سقفك ان همت عين السما
ويطير كوخك اذ تهب رياح

وهكذا تجد هذه الوحدات المتكررة ملونة عند كل شاعر من شعراء الفلاح والريف بالوان مستمدة من حسه وشعوره وخياله واستعداده للخلق الفنى ٠

« **محمد عبد الغنى حسن** »

صراع الثقافة !!

بقلم : محمد عطا

شهدنا فى الفترة الأخيرة معارك محتدمة بين الكتاب العرب بعضهم وبعض سواء فى المحافل الادبية أم فى الصحف والمجلات السيارة ، واتسمت هذه المعارك أو اعمها الأغلب بالحدة والعنف ، وبذلك خرجت هذه المعارك من نطاق النقاش والحوار العميق الى نطاق الانفجار العاطفى الذى لايخدم قضية الادب ولا يدعم أصول النقد ، ولا يرفع دعامات الخلق الفكرى فى مرحلتنا الثقافية الحاضرة ٠

ومما لا شك فيه أن هناك قضايا فكرية تنتظر من نقادنا البت فيها وابداء وجهة نظرهم ، وهذه القضايا الفكرية نبعت من التطور الهائل الذى طرأ على حياتنا ومجتمعنا ، هذا التطور الذى دفع الأدباء الى التخلى عن التعبير عن ذواتهم تعبيرا عاطفيا رومانسيا الى التعبير عن واقع الجماهير واحساسهم وكفاحهم وآمالهم ، فالأديب فى المجتمع الاشتراكى غيره فى المجتمع الرأسمالى ، فهو فى المجتمع الاشتراكى لا يخدم أو يعبر عن القلة صاحبة النفوذ والسلطان ولا يكتب لجماعة بعينها ولكنه يكتب ويعبر عن القاعدة الجماهيرية ، واذا كان يعبر عنها ، فهو يكتب لها ، وهنا نشأت قضيتان فكريتان ، القضية الأولى هى : عمن يعبر الأديب أو الكاتب ؟ والقضية الأخرى هى : لمن يكتب الأديب ؟

وحول هاتين القضيتين كان لابد من وقوع الصراع أو كانت حتمية الصراع ، الصراع بين القديم والحديث ، والصراع حتمى فى مرحلة الانتقال ولسنا نشك فى أن جمهرة الكتاب العرب تؤمن بحتمية التطور ، وتعتنق المبادىء الاشتراكية ولا تكاد تختلف فيما بينها فى الذهاب الى أن يلتزم فى الأدب كما نلتزم فى العلم ، وأن يكون أدبنا انعكاسا صادقا لتطورنا العظيم ، وأن نشد بالأدب أزر الجماهير الكادحة ، وأن نسمو بثقافتنا وافكارنا ، وأن نحررها من الانحلال والعواطف الحسيسة أما الخلاف بينهم فيتمثل فيما أعتقد فى الشكل لا فى المضمون ، ففى الشعر مثلا يذهب فريق الى أن الوزن والقافية ينبغى أن يتحرر منهما الشعر العربى فى فترتنا الحاضرة والمستقبلة بحجة أنهما قيدان ثقيلان على انطلاقة الشاعر والتعبير بصدق عن كامل احساسه وأن التزام القافية فيه نوع من الرتابة الممجوجة التى لم تعد تتفق والتطور الموسيقى فى العصر الحاضر ، وأن الشعر يمكن أن يتحقق بدون القافية بل بدون الوزن ، أما الفريق الآخر فيحمل على هذا الرأى حملة عنيفة ، ويرى أن الشعر العربى لايكون شعرا من غير وزن وقافية ، وترخص بعضهم فقال اننا يمكن أن نلون فى القافية لا أن نتحلل منها كل التحلل ٠

والخلاف بين الفريقين ليس ابن اليوم ، ولكن له جذوره البعيدة ربما يرجع العهد بها الى العصر العباسى ، وهو خلاف يستعر فترة ثم يخمد ثم يعود الى الفوران حينا بعد حين ٠ وقد تجدد فى هذه المرحلة لأن الفريق الآخر يرى أن تحررنا قد شمل كل شىء ، وأننا نكتب للجماهير لا لفئة مثقفة بعينها، فاذا تحررنا من الوزن والقافية استطعنا أن نفرغ كل طاقاتنا وأحاسيسنا فى القصيدة أو المقطوعة دون أن نتعثر أو نستقطب الطاقة الشعرية المتفجرة ، ودون أن نلجأ الى استخدام الفاظ قد لا تكون دالة أو موحية أو الفاظ غريبة على أسماع الجماهير الذين نعبر عن مشاعرهم ، ونحاول امتاعهم ، وليس من ريب فى أن أغلبنا ما زال مشدودا الى عمود الشعر العربى وأن من العسير عليه أن يتذوق شعرا متحررا كل التحرر من الوزن والقافية ، فالشعر الذى تذوقناه فى كل مراحلنا هو الشعر العربى الملتزم ، شعر المتنبى وأبى تمام والبحترى وأبى العلاء المعرى وأبى نواس هؤلاء الشعراء الذين أجمع نقادنا على أنهم أعظم شعراء العربية على الاطلاق ، على أننا فى الوقت ذاته قد قرأنا الموشحات والمواليا الأندلسية وطربنا

لها واستمتعنا بها ، وتأثرنا من غير شك بآراء النقاد العرب ، وان كانوا قلة من أن الشعر يتحقق بدون الوزن والقافية ، واذا كان الأمر كذلك فهل يمكن أن نحسم هذا الخلاف الدائر في عصرنا كما كان في عصور من قبلنا ؟ لا شك أن الشعر العربي له أصوله وقواعده ، ولكن هذه الأصول والقواعد يمكن أن تتطور كما تطور كل شيء فلن يظل القديم على قدمه، ولن يظل الحديث حديثا بل سينتهي به الأمر الى أن يكون عتيقا ، وتحاول الاجيال القادمة المتطورة تجديده وتغييره .

هذه هي سنة التطور ، وهذه هي الحياة النامية المتجددة تجدد الفكر الانساني الذي لا يقف عند حد . على أن الذي أومن به ، وسيظل باقيا بقاء هذا اللون من الأدب هو أني اذا طالعت شعرا أحسست بأني أطالع شعرا لا شيئا آخر بمعنى أن أحس احساسا عميقا بأن الشاعر قد نقل الى تجربته الشعورية كاملة من غير أن تتقطع أنفاسه ، وأن أشعر بصدق احساسه ، وأن يشدني اليه ، وأن يحرك كوامن نفسي ، وأن يحملني على التفكير فيما ذهب اليه من معان وأحاسيس ، ولا يهمني بعد ذلك القوالب التي صب فيها شعره أهي قوالب موزونة أم غير موزونة ، مقفاة أم غير مقفاه ، واذن ينبغي الا نرفض الشكل أيا كان هذا الشكل ، وانما نرفض العي والحصر والانفعال الكاذب والجنس الرخيص ، والتجديد الغامض القاصر الذي ما وجد الا لاحداث البلبلة الفكرية أو محاولة الهدم لذات الهدم .

وليس التحرر من الوزن والقافية هو كل شيء ، بل ذهب الفريق الآخر أو معظمه الى المناداة بالتحرر من اللغة ذاتها ، أعني اللغة الفصحى ، وترجمة احساسنا ومشاعرنا وعواطفنا باللغة الدارجة التي تفهمها جماهيرنا ، واعتقد أن هذا غلو منهم ، لانهم يحصرون أنفسهم في مجال ضيق ، مجال اللهجة المحلية التي لا تفهمها أو تستسيغها الجماهير العربية في المناطق الاخرى ، هذا الى أننا قد تواضعنا على أن تكون لغة الكتابة ولغة الأدب هي اللغة الفصحى ، ولغتنا الفصحى تمتاز بالمرونة والثراء وكثرة الألفاظ التي تعبر عن معنى واحد أو تكاد تعبر عن معنى واحد ، وميزتها هذه قد مكنت بعض الأدباء من استخدام ما أسموه باللغة الوسطى ، أو اللغة الثالثة التي تستخدم الكلمات أو التعابير الدائرة على الألسنة بقليل من التحوير من غير أدنى افتعال ، ويخيل الى أن المنادين باستخدام العامية أو اللهجة المحلية لا يخدمون قضية الادب العربي بل أنهم يهوتون من حيث يدرون أو لا يدرون من شأن قوميتهم العربية التي تقوم أول ما تقوم على وحدة اللغة ، هذا الى أنهم حين ينادون بذلك يعملون على ايجاد ما يشبه الانفصام ، بين ثقافتنا العربية القديمة ، وبين ثقافتنا المعاصرة، والانفصام يؤدي الى التنكر لماضينا ، ونحن نعلم كل العلم أن من لاماضي له لاحاضر له ، على أننا قد ارتضينا أو ارتضت جمهرتنا أن نقيم ثقافتنا المعاصرة على أساس ثقافتنا الغابرة ، ثقافة الآباء والاجداد . على أننا في فن «الرواية» يمكن أن نلجا الى استخدام العبارات العامية في الحوار التي لايمكن أن تعبر عنها التعبير الدقيق العبارات الفصحي أي في حالة الضرورة القصوى .

وهناك موضوع آخر أثير في المعارك الأخيرة وحمل ما لم يحتمل هو موضوع التفسير الخاطيء لبعض تراثنا الاسلامي والخطأ في نظري لا يعدو أن يكون قصورا من المفسر أو الكاتب عن أن يحيط بهذا التراث أو يتعمقه . والقصور ناشيء عن أن بعض كتابنا قد طغت عليه الثقافات الأجنبية فبهرته وأقصته عن أن يدرس الثقافة الاسلامية بنفس الحرارة التي يدرس بها الثقافات الأخرى ، ومن هنا كان خطأ هذا البعض أننا من غير شك نعاني من أن مجتمعنا الحاضر يجمع بين فريقين متناقضين كل التناقض ، فريق مثقف ثقافة غربية خالصة ، وفريق مثقف ثقافة عربية خالصة ، الفريق الأول لا يرى ثقافة أصيلة الا ثقافته ، والفريق الثاني يؤمن ايمانا عميقا بثقافة العربية ويراها خير الثقافات ، ووجود هذين الفريقين في محيط واحد معناه تجدد الصراع بينهما يوما بعد آخر ، وحينا بعد حين ، ولن نتخلص من هذا الصراع وشيكا مع وجود هذه الازدواجية في التعليم ، ومع محاولة الثقافات الاجنبية غزونا بكل طريق وبكل وسيلة ، ومع وجود هذه الرواسب التي تركها الاستعمار الفكري وخلفها لنا في الشرق العربي .

وهذا الصراع واضح كل الوضوح في الوطن العربي بأسره ، ومن أجل هذا كان واجب المثقفين الأول هو العمل على التقريب بين الثقافات ، بمعنى أن نؤمن جميعا بأن الثقافة العربية الاسلامية هي

(البقية على صفحة ٣٤)

وثيقة مبايعة

للشاعر الدكتور عبد العزيز مطر

من كل اعماقى ، وكل مشاعرى
من مهجة القلب المحب وخاطرى
من كل قلب فى الكنانة مفعم
بالحب للبطل العظيم الثائر
وبحق فجر ثار فيه مؤيدا
بعناية الله العزيز الناصر
وبحق تحرير البلاد وقد قضت
سبعين عاما فى قيود الآسر
وبحق تاميم القناة وردها
للشعب من يد غاصب ومغامر
وبحق وقفة بورسعيد منيعة
من خلف قائدها الشجاع الظافر
وبحق ثامنة الأعاجيب التى
شيدت بأسوان بقدرة قادر
وبحق كل مصانعى ، فبفضله
غدت الصناعة من صميم مفاخرى
وبحق مجتمع يرفرف فوقه
علم الكفاية والعدالة ، ناضر
وبحق ميثاق عظيم سنه
كلماته كالنور فوق منائر
وبحق أجيال مضت تواقة
للنهضة الكبرى وعز الحاضر

***

من أجل حقك يا فلسطين العزيـ
ـزة فى القضاء على الدخيل الغادر
من أجل أن تغدو « عمان » حرة
ويتم تطهير الجنوب الثائر
من أجل رغبة أمة فى وحدة
تسع الخليج الى المحيط الهادر
من أجل افريقيا المناضلة التى
ترنو اليه بكل حب غامر
من أجل نصرة كل شعب ناهض
من أجل تحقيق السلام الزاهر
من أجل آمالى ، بحق مكاسبى
بعقيدتى ، بايعت « عبد الناصر »

***

هذى وثيقة بيعة حررتها
بمشاعرى ، ليست قصيدة شاعر

في أخريات الربيع

للشاعر : بدر شاكر السياب

يا ضياء الحقول ، يا غنوة الفلاح في الساجيات من أسحاره
اقبل ، فالربيع ما زال في الوادي ، قبل صداك قبل احتضاره
لا تصيب العيون الا بقاياه ، وغير الشرود من آثاره :
دوحة عند جدول تنفض الأفياء عنها وترتمي في قراره
وعلى كل ملعب زهرة غيناء فرت اليه من أياره

***

في المساء الكئيب ، والمعبد المهجور ، والعابسات من أحجاره
مصغيات ، تكاد من شدة الاصغاء أن توهم المدى بانفجاره
أرمق الدرب ، كلما هبت الريح وحف العتيق من أشجاره
كلما أذهل الربى نوح فلاح يبث النجوم شكوى نهاره
صاح « ياليل » فاستفاق الصدى الغافي على السفح والذي في جواره
فاذا كل ربوة رجع « ياليل » ونام الصدى على قيثاره :
أين منهن خفق أقدامك البيضاء بين الحشيش فوق اخضراره
مثل نجمين أفلتا من مدارين فجال الضياء في غير داره
أو فراشين أبيضين استفاقا يسرقان الرحيق من خماره ! !

***

أنت في كل موعد وسنان ، ما زال يومه في انتظاره



(بقية المنشور على صفحة ٣١)

الاساس الذى ينبغى أن نتثقف به ، ولا يمكننا أن نتخلى عنه ، وواجبهم الثانى هو اخصاب هذه الثقافة وتنميتها وتلقيحها بالثقافات الاخرى ، كما فعل أجدادنا الذين نقلوا الى العربية الثقافة اليونانية ، فأفادوا منها حتى ازدهرت الثقافة العربية ، وأينعت واستطاعت أن تجدد وأن تضيف الى الثقافة اليونانية اضافات قيمة ما لم تعرفها ، وتمكنت بذلك من أن تحمل مشعل التقدم والتطور ، وأن توقظ الرعيل الأول من بناة الحضارة الغربية ، وأن تهديهم الى طرق البحث العلمية الصحيحة ، وفى طليعتها الطريقة التجريبية التى استخدمها «روجر بيكون» الذى كان تلميذا مخلصا للثقافة العربية الاسلامية ، واعترف بهذا فى غير حياء أو خجل ، وكان اعترافه اعتراف العالم الذى يؤمن بان الثقافة ليست ملك أمة ولا شعب ، ولكنها ملك الانسانية جميعا .

ان العالم اليوم اصبح أسرة واحدة أو هو فى طريقه الى أن يكون كذلك ، واذن فمن واجب المثقفين العرب اخصاب ثقافتهم لا هدمها أو التنكر لها ، وعملية الاخصاب هذه تقتضيهم الانصراف اليها دون غيرها من المهاترات أو العناد ، وهى عملية ستستغرق كل وقتهم ، لأنها لن تنجح الا اذا توافر المثقفون على دراسة الفكر العربى الاسلامى دراسة مخلصة عميقة مستنيرة فمثل هذه الدراسة لم توجد بعد ، لأن الاستعمار الغربى قد شوه معالم هذا الفكر أو عمل على وقف تيار المد العربى الثقافى ، وعمل مثقفونا فى الوقت ذاته على تطوير هذه الثقافة حتى تتفق وروح العصر مصطفين مناهج الثقافة الحديثة ، وأسلوب التقدم العلمى ، ولن يضيرهم هذا الأخذ ما دامت وجهتهم العمل على التقدم الانسانى والنهوض بثقافة كان لها مجد وتاريخ ، وأثبتت وجودها وكيانها فى عصور متتابعة وآجال متطاولة .

محمد عطا

مُنَاجَاة

للشاعر : يس الفيل

اذا ماشقشق العصفور بين الماء والعشب
وعانق فأسه الفلاح فى زهو وفى حب
وقافلة الصبايا السمر ان غنت من القلب
وان شيخ دعا الفتاح : ربى ارزقنى يا ربى

فزفى يا عروس النور أفراحا الى الدرب
ومدى شعرك الذهبى فوق الجرن والحب
وهاتى كاسك الفضى بالآمال .. للشعب
يغنى حين يترعه .. نشيد الخير والحب

عيد الفكر الإنساني

بقلم : فتحي عثمان

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »

كما يحتفل الانسان بالذكريات السعيدة والمجيدة بأساليب معينة متباينة ... يحتفل المسلمون بعيد الفكر الانسانى ، بأسلوب فريد هو الصيام .

ولقد كان رمضان عيد الفكر الانسانى اذ حمل الى البشرية دعوة لاتخاطب الا عقولهم ... دعوة معجزتها المنطق والبيان « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

وهكذا لا تقنع دعوة الاسلام بأن تحمل الى الانسانية هداية عامة مجملة ... انها تريد أن تصل الى أعماق الفكر والوجدان ، عن طريق بينات مفصلة من الهدى والفرقان !!

ودعوة الاسلام لا ترضى أن يتبعها العدد الجم الغفير من البله والمعتوهين ، أو الضالين المضللين .. انها دعوة تخاطب الذين يعقلون ، والذين يعلمون ، والذين يتفكرون ويتدبرون ، وتعرض نفسها على اولى البصائر والابصار والالباب !!

فما أسعد العقل الانسانى بهذا التكريم ... سواء آمن أو لم يؤمن بهذا الدين !!

لقد اعلن القرآن نهاية عهد الطفولة التى كانت البشرية تنقاد خلالها للخوارق الحسية والمعجزات المباشرة الصادعة القارعة ... اعلن القرآن نهاية ذلك العهد ، وبداية عهد الرشد ، وقرر أن اقناع العقل ابقى وأدوم من انبهار طارىء قصير المدى ، قد يستثير رد فعل من اللجاج والعناد « وما منعنا أن نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون .. ومانرسل بالآيات الا تخويفا » .

«لقد تكرر طلب الآيات — اى المعجزات — من جانب الجاحدين او بالاحرى زعمائهم كثيرا ، حتى حكى القرآن المكى ذلك عنهم نحو ٢٥ مرة صريحة عدا ماحكى عنهم من التحدى الضمنى ومن التحدى بالاتيان بالعذاب واستعجاله والتساؤل **عن موعده .. ان حكمة الله اقتضت الا تكون الخوارق دعامة لنبوة محمد وبرهانا** على صحة رسالته وصدق دعوته التى جاءت بأسلوب جديد **هو أسلوب لفت النظر الى الكون** ومافيه من آيات باهرة ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه وبطلان الشرك والوثنية وسائر العقائد والتقاليد المتناقضة مع هذا الأصل النقى البسيط ، ثم **أسلوب مخاطبة العقل** والقلب فى الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، واثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار ان الدعوة التى تقوم على وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش **هى فى غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات** ، وفى هذا ما فيه من وضوح الرسالة المحمدية وترشيحها للخلود والتعميم » أفلا يحق للفكر الانسانى ان يعتبر شهر القرآن عيدا .. أكرم به من عيد !!

وعلى قدر الحاح القرآن على العقل الانسانى : يستثيره ويذكى طاقاته ويعلن الثقة به فى اخطر قضاياه ... على قدر ضيقه بالتقليد الذى يمسخ البشر قردة خاسئين !!

فالقرآن يوجه العقول للمنطق والحجة والبيان « وجادلهم بالتى هى أحسن » ، « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .. ومن الطريف أن الامام ابن حزم يذكر فى هذا الباب ان المسلمين مأمورون باتباع ملة ابراهيم : « فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا » ، ومن ملته المناظرة والمحاجة « تلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه » ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه » .. ثم يقول ابن حزم « وقد علمنا

الله الحجة على الدهرية والثنوية وجميع الملل ، وامر بالجدال على لسان رسوله (جاهدوا المشركين باموالكم وانفسكم والسنتكم) وقد علمنا رسول الله وضع السؤال وكيفية المحاجة . وقد تحاج المهاجرون والانصار وسائر الصحابة ، وحاج ابن عباس الخوارج بامر علي وما انكر احد من الصحابة الجدال فى طلب الحق ، ومن شاء ان يستزيد فليطالع ذلك الباب الممتع الذى عقده ابن حزم بعنوان (باب فى اثبات حجج العقول) وهو يستهل الباب منكرا على من قال : لا يعلم شيء الا بالالهام ـ وهم المتصوفة ، ومن قال : لا يعلم شيء الا بقول الامام ـ وهم الشيعة ، ومن قال : لا يعلم شيء الا بالتقليد ـ وهم غلاة المذهبيين . وعند ابن حزم انه لااحتجاج بغير النص الشرعى من كتاب او سنة ، لكنه يقول : « **بطل ان يعلم صحة الخبر بنفسه ، اذ لافرق بين صورة الحق منه وصورة الباطل ، فلابد من دليل يفرق بينهما ، وليس ذلك الا لحجة العقل المفرقة بين الحق والباطل**» .

● والقرآن يحرر العقول من اى انقياد لرغبة او رهبة .. انه ينعى على الذين قالوا «انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون » ، وعلى الذين قالوا « انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا » !

وابن حزم يقول هذه الكلمات المشرقة المتالقة :

« اجمع الناس على ان المقلد ليس معدودا من اهل العلم ، وان العلم معرفة الحق بدليله .. وعلى اخراج المتعصب بالهوى والمقلد الاعمى من زمرة العلماء .. ولا يجوز الفتوى بالتقليد لأنه ليس بعلم ، والفتوى بغير علم حرام ، ولا خلاف بين الناس أن التقليد ليس بعلم وان المقلد لا يطلق عليه اسم عالم . وهذا قول أكثر الاصحاب وجمهور الشافعية». وابن حزم يؤثر الخطأ فى الاجتهاد على الصواب فى التقليد ، فالمقلد المصيب موزور بتقليده غير مأجور على صوابه ، والمجتهد المخطىء مأجور باجتهاده غير مؤاخذ على خطئه .

أفلا يحق للفكر الانسانى ان يعتبر شهر القرآن عيدا ... اكرم به من عيد !!

وتقدير العقل الانسانى وحده .. اساس اصيل للمساواة الانسانية .

انه لا مجال فى نور العقل لفوارق الأرض او الدم او الطبقة ... فالعقل الانسانى موجود ما وجد الانسان .. ومن ثم فكل ارباب العقول سواء !

ولقد كان محمد من (قريش) ، ونشأ فى (مكة) .. ولكن لم تنصر قريش رسالة محمد ، وانما نصره (الأوس والخزرج) .. واخرجت مكة محمدا ، وكانت (يثرب) هى التى آوته ونصرته !!

وخرج الاسلام الى الناس يحمل معه (الايديولوجية الانسانية) الجديدة ..

● انه يرتكز الى (أمة) لا تنتسب الى ارض او عرق .. بل الى رسالة الخير والاصلاح

« كنتم خير **أمة** اخرجت للناس

« تامرون بالمعروف

« وتنهون عن المنكر

« وتؤمنون بالله »

● ويقيم فى الأرض **(دولة)** لا تقوم على حتمية جغرافية أو جنسية .. وانما تعلن ولاء جديدا للاختيار الحر .

« ان الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا باموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

« والذين آووا ونصروا .

« **اولئك بعضهم اولياء بعض**

« والذين آمنوا ولم يهاجروا : مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا

« وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق

« والله بما تعملون بصير .

« **والذين كفروا بعضهم اولياء بعض** ، الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

ولقد منحت هذه الأمة عضويتها ، ومنحت هذه الدولة رعويتها : للعربى القرشى وغير القرشى ، ولصهيب الرومى وسلمان الفارسى وبلال الحبشى .. سواء بسواء !!

● **وامة الاسلام ودولته لا تقتلعان عصبية الارض او الدم لتقيما عصبية الدين** .. انها تقدس أخوة

الانسان والانسان ولا تجيز لصاحب الايديولوجية الجديدة أن يستهل بعدوان :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين ».

« ولا يجرمنكم شنآن قوم ان صدوكم عن المسجد الحرام ان تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

والاسلام لا يرفع سيفا الا ليردع سيوفا مصلتة على حرية الفكر . فان اغمدت السيوف رحب الاسلام بصرير الاقلام وحجاج الالسنة ، ولو انتهى ذلك ــ فى اخلاص وشرف ــ الى عدم اعتناق الاسلام !!

فالقتال فى الاسلام يدفع فتنة طغيان الانسان على الانسان : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .. ويكون الدين كله لله » .. فان قمع الطغيان وكفلت الحرية ، فكل انسان حر فيما يقتنع به ويدين « لا اكراه فى الدين » «قال يا قوم ارايتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، انلزمكموها وانتم لها كارهون » .

فاذا أردنا أن نحسن (الصيام)، فعلينا الا ننشغل بالاحتفال عن المحتفل به .. علينا ان نعطى (الفكر) دائما قدره ، وان نتعامل اساسا مع (الانسان) !!

وما احق للانسان ان يحتفل بعيد الفكر الانسانى هذا الاحتفال الفريد .

فتحى عثمان

ت . س . اليوت

ومدرسة النقد الحديث

بقلم : حميد سرحان

مع مستهل العام الجديد مات الشاعر الناقد **ت . س** . اليوت وقالت الجرائد العالمية صبيحة موته ان العالم قد فقد علما من أعلام الادب فى القرن العشرين ، طبع أدب هذا القرن باكمله بطابعه ، وترك عليه بصماته الواضحة . ولم يكن اليوت صاحب مدرسة فى الشعر الحديث فقط وانما كان أيضا صاحب مدرسة فى النقد ، تقوم على نظرية معينة هى النظرية الموضوعية ، وكان لكتاباته النقدية الهامة أثر كبير على تكوين العقلية النقدية لمعظم نقاد هذا العصر .. الذين تتلمذوا على اليوت وفصلوا نظريته بالتطبيق على الاعمال الفنية والاشغال الادبية المختلفة ، أو طوروها وعدلوا فيها وان ظل جوهر النظرية واحدا فى أعمال كل منهم .. ولذلك فان الدارس للنقد الحديث فى القرن العشرين لابد أن يترسم خطوات اليوت ويتتبع أثره العميق فى الكتابات النقدية المختلفة التى ظهرت على مدى نصف قرن فى انجلترا وأمريكا ..

بدأت **مدرسة النقد الحديث** تحت زعامة اليوت بالبحث عن منهج جديد لتحديد الصفات الخاصة التى تميز العمل الفنى عن غيره من نواحى النشاط الانسانى . وكان الباعث الرئيسى لنشوء هذه الحركة الجديدة فى النقد هو الثورة على المدرسة الرومانسية التى أزدهرت فى انجلترا فى القرن التاسع عشر - أو بالاحرى الثورة على النظرية الرومانسية فى النقد التى تقول ان العمل الفنى هو تعبير عن شخصية مؤلفه ، وان وظيفة الناقد هى ان يسجل انطباعاته عن العمل الفنى وكان من نتيجة هذه الثورة أن أعلن اليوت ومن قبله الناقد الفيلسوف الانجليزى ت . ا . هيوم نشأة الكلاسيكية الجديدة التى ترى ان العمل الفنى يجب أن يتميز بالاحكام فى الشكل والدقة فى الصور الفنية . وبدأت الحركة بكتابات ت . ا . هيوم قبل أن يموت بسنة واحدة فى الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٧ . وهى عبارة عن سلسلة من المقالات أطلق عليها اسم « التأملات » ، وهاجم فيها ذاتيه الادب الرومانسى وما يتسم به من غموض ، ودعا الى استخدام الصور الفنية « الجافة والملموسة » فى الشعر خاصة ، كما دعا الى الموضوعية فى الفن عامة . وكان هيوم يؤمن بان الانسان بطبيعته حيوان محدود القدرات ، على عكس ايمان الرومانسيين بأن الانسان له قدرات غير محدودة . وبما ان الانسان حيوان محدود القدرات فهو لايستطيع أن ينجز شيئا ذا قيمة الا اذا فرض على عمله نظاما قاسيا . وأثرت آراء هيوم النقدية والفلسفية فى اليوت وانعكست فى مقالته الشهيرة عن « التقاليد والموهبة الفردية » التى ظهرت عام ١٩١٧ . وفى هذا المقال يدعو اليوت الى الفكرة القائلة بان الشاعر لايعبر عن شخصيته فى العمل الفنى وانما هو يخلق « وسطا » معينا ، وفى هذا « الوسط » تتجمع الانطباعات والتجارب الحسية فى تكوينات جديدة وغير متوقعة . وهاجم اليوت رأى وردزوث الشاعر الرومانسى القائل بان الشعر عبارة عن « تدفق حر للمشاعر » وأكد ان الشعر ليس اطلاق المشاعر على أعنتها وانما هو هروب من الشخصية . فكلما هرب الشاعر من شخصيته التى يعيش بها فى الحياة وخلق جسما موضوعيا لايمت بصلة الى هذه الشخصية كان أقرب الى النجاح . وبهذا المفهوم يصبح العمل الفنى عبارة عن ترتيب وتشكيل له مغزاه للتجارب الحسية ، وليس تعبيرا عن حياة خالقة أو عن تاريخ معين أو فكرة بعينها . وانما هو نمط من التجارب الحسية له وجود أزلى فى الماضى كما هو فى الحاضر والمستقبل . ولذلك فان قصيدة لشكسبير مثلا لها وجود عصرى مثلها مثل أى قصيدة حديثة تماما ، لأنها عبارة عن جسم موضوعى يثير عاطفة أو عواطف معينة ولا علاقة له بالظروف الشخصية او التاريخية

التي تم خلقه فيها . وبهذا المفهوم ايضا يصبح لتراث الامة الشعرى مثلا وجود عصري ، ولابد للشاعر الجديد أن ينمى لديه هذا الاحساس بحضورية التراث أو عصريته لان هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أن ينمى عنده الاحساس بالشكل أو « **الوسط** » الذى يخلق عن طريقه العمل الفني ، وبهذا المفهوم ايضا يصبح الشعر والفن عامة موضوعيين وليسا ذاتيين ، مثل ماكان يعتقد الرومانسيون .

ومن هنا لعبت أفكار اليوت دورا هاما في تشكيل الحركة النقدية التي قامت في الثلاثينات في أمريكا وانجلترا والتي وضعت نصب عينيها انقاذ العمل الادبي من الترجمة الذاتية والتاريخ وحاولت اكتشاف الصفات التي تجعل منه نشاطا متفردا مميزا عن سائر النشاطات الانسانية ، وطرحت الاسئلة الهامة التالية :

ما الذي يميز استخدام اللغة استخداما أدبيا ، وبالذات استخداما شعريا ، عن الوسائل الاخرى في استخدام اللغة ؟ وما الذي يجعل العمل الفني متفردا ؟

ولم يكن كافيا ان يقال ان الشعر يتميز بدقة استخدام الصور الفنية او الموضوعية . وانما اوحى تأثير الشعر الرمزى الفرنسى الذى جاء عن طريق اليوت ، بان الصورة الفنية في القصيدة مهما كانت دقتها وقدرتها على الايحاء الحسى لايمكن ان تقوم بذاتها في القصيدة وانما يجب ان تكون جزءا من نمط متشابك من الصور الفنية التي تنتظمها القصيدة ككل .. ومن هنا نشأت وحدة العمل الفني وقدرته على اعطاء التأثير المتكامل من خلال الجزيئات المترابطة ترابطا عضويا مثل أجزاء الجسم الحي . وعندما توضع الصورة الفنية الواحدة داخل هذا النمط المترابط من الصور التي تكون القصيدة ككل ، فانها تكتسب ظلالا من المعاني أكثر دقة ورهافة وتصبح أكثر قدرة على الايحاء مما لو كانت وحدها وبالطبع اكثر كثيرا من استخدامها في النثر . وثانيا كان تأثير شعراء ما وراء الطبيعة الانجليز من القرن السابع عشر ، يضيف بهذه النظرة الجديدة الى الشعر والفن عامة الكثير . وأهم ما أضافته دراسة هذا اللون من الشعر هو اكتشاف عنصر الفكر . وقد أكد اليوت في مقاله الشهير عن شعراء ما وراء الطبيعة الانجليز وخاصة جون دون ، ان الفكر والشعور كانا شيئا واحدا في شعر هؤلاء الشعراء . فكان جون دون مثلا يحس الفكرة بنفس القوة والسرعة التي يشم بها المرء عبير زهرة جميلة .. وهذا هو السبب الرئيسى في قوة تأثير شعرهم . أما ما تلاهم من شعراء مثل تينسون وبراونتج مثلا — وهما من شعراء الفكرة — فلم يستطيعوا احداث تأثير في مثل هذه القوة ، لأن الفكر كان ينفصل في شعرهم عن الشعور .

وترتب على هذا التقييم الجديد لشعراء ما وراء الطبيعة الانجليز تأكيد مدرسة النقد الحديث على استخدام الفكر استخداما جادا في الشعر . ولا نعنى بالفكر هنا أفكارا معينة أو نظاما فلسفيا يدعو له الشاعر في القصيدة ، وانما هو تدخل العقل في تنظيم الاحاسيس والصور الحسية والخبرات التي تكون في مجموعها القصيدة أو بالاحرى ما يسميه أبناء هذه المدرسة بالبناء القائم على المفارقة . ويقول أحد أعمدة هذه المدرسة وهو الدكتور كلينث بروكس في كتابه « **الابنة المحكمة الصنع** » ان المفارقة هي لغة الشعر الوحيدة . وقد يتبادر الى الذهن لاول وهلة ان بروكس يعنى بالمفارقة استخدام الحيل اللغوية أو الخداع الذهني الظاهر مثلما نقول ان الحقيقة الوحيدة في الدنيا أنه لاتوجد حقيقة — ليس هذا هو المقصود بالمفارقة اطلاقا وانما تتولد المفارقة الشعرية من موقف شعورى معين يتضمن موقفا مناقضا له في الظاهر ومع ذلك يتكامل معه ويكونان معا وحدة واحدة في البناء العام للقصيدة ككل عضوى . كما تنبع المفارقة من مقابلة الدلالات الشعرية داخل القصيدة الواحدة بعضها ببعض فتكتسب بهذا التقابل معاني جديدة قد تتعارض أو تتناقض في الظاهر ولكنها في نهاية الامر تكون موقفا شعوريا متسقا هو الانطباع الكلي الاخير الذى تتركه القصيدة في نفس القارىء . وفي محاضرة القاها الاستاذ روبرت بن وارين في جامعة برنستون عام ١٩٤٣ بعنوان « الشعر الخالص والشعر غير الخالص » حاول أن يوضح معنى المفارقة بطريقة اكثر تبسيطا . فمثلا في قصيدة حب غنائية لا يجب على الشاعر أن يتناول الحب بصفته عاطفة ساذجة مشبوبة وانما يجب أن يورد الصفات المناقضة لهذه العاطفة الخالصة مثل الجنس والشهوة مثلا ، وبهذا التناقض الظاهرى بين موقفين شعوريين يتسقان في النهاية ليكونان موقفا مركبا يعطى انطباعا كليا ،

وبالطبع ليس هذا المثال ملزما لكل من كتب قصيدة حب غنائية وانما هو فقط تبسيط وتوضيح لفكرة المفارقة . والاستاذ وارين يضرب مثلا على المفارقة كما عرضناها آنفا بمشهد الشرفة في مسرحية شكسبير « روميو وجولييت » ففي هذا المشهد نجد مناجاة الحبيبين التي تتسم بالعاطفة المشبوبة، بينما يطلق مركيوشو نكاته الشبه جنسية .. وهذا التعليق الدرامي من جانب مركيوشو يكون تناقضا في الشعور بين ما يقوله وبين مناجاة الحبيبين الرومانسيين وبالتالي يكون موقفا مركبا تعمق من احساسنا بالحب الرومانسي الذي يربط بين روميو وجولييت .

وقد هاجمت مدرسة النقد الحديث بشدة طرق الحديث اليومية والكليشيهات اللغوية المحفوظة التي كان من شأنها أن تفقد المعاني جدتها وقدرتها على الايحاء، وتجعلها سوقية . ولهذا كان ناقدا مثل آلن تيت - وهو من عمد هذه المدرسة أيضا - يقول في مقال له عن « التوتر في الشعر » ان « **كثيرا من الشعراء يضطرون الى اختراع لغة خاصة بهم ، أو الى استخدام لغة قاصرة للغاية** » والسبب في ذلك هو أن « **حديث الناس أصبح مشبعا الى درجة كبيرة بالمشاعر العمومية**» أو بالاحرى بالكليشيهات، ولكن قوة الشعر عند «تيت» لاتكمن في محاولة ايصال معنى معين ، ولا تكمن أيضا في تجسيم الشاعر لاحاسيسه الخاصة المستمدة من حياته . « فتطور » القصيدة أو « امتدادها » ، أي حركتها المنطقية من نقطة الى أخرى أو من معنى الى آخر حتى تصل الى نهايتها ، وكذلك « كثافتها » ، أي الشحنة العاطفية التي تحملها ، كلاهما أقل أهمية مما يسميه «تيت» « بالتوتر » الذي يقوم عليه بناء القصيدة . ويعني تيت « بالتوتر » ، التعقيد الفني في تصوير التجربة الشعرية ، ذلك التعقيد الذي يتعدى مجرد حركة المعاني في القصيدة أو تطورها ، لتصبح مجموعة من الاحاسيس والمعاني التي ينتظمها نمط مركب ، وعلى القارىء ان يحاول قراءة القصيدة بوصفها بناء مركبا من المعاني أولا وأخيرا .

وقد عالج الاستاذ الدكتور «١٠١» ريتشاردز وهو من أئمة دارسي النقد الحديث وعلم النفس معا، مشكلة المعنى في الشعر والفن عموما في كثير من كتاباته .. وهو يفرق في كتابه الهام « العلم والشعر » الصادر عام ١٩٢٦ بين طبيعة « المعنى» في الكتابة العلمية وطبيعة المعنى في الشعر ، فهو يسمى المعنى في العلم « معنى مشيرا » أي يشير الى شيء خارج نفسه . فالعبارة العلمية مثلا ليست مقصودة في حد ذاتها وانما هي تشير الى حقيقة خارجية في الطبيعة ، اما المعنى في الشعر فيسميه الاستاذ ريتشاردز « معنى عاطفيا » وهو يختلف عن الاول اختلافا جذريا ، فليس المقصود منه ايصال حقائق أو أفكار وانما خلق حالة شعورية معينة ذات قيمة . ويعني ريتشاردز بالقيمة « تنظيم الاحاسيس والدوافع البشرية المتعارضة والمتنافرة» وهذا الجزء من نظريته لايختص فقط بطبيعة الشعر من حيث هو كيان عضوي مستقل وانما يختص أيضا بمهمة الشعر . وريتشاردز يعتمد الى حد كبير على علم النفس في هذه النظرية - التي تنبع أيضا من مفهوم أبناء مدرسة النقد الحديث للفن بوصفه جسما موضوعيا مستقلا عن شخصية الشاعر وشخصية القارىء أو الناقد على السواء . ويرى ريتشاردز ان الانسان تتنازعه مجموعة من الدوافع المتصارعة المتناقضة ، وتنجح بعض هذه الدوافع في التغلب على البعض الآخر وتبرز على السطح وبالتالي تكون هي المحرك لسلوك الانسان في الحياة ، أو تلك المكبوتة فتظل في منطقة الظل ولكنها تتحين دائما الفرصة للظهور والتغلب على الدوافع الاخرى والانسان بالتالي في لحظات حياته اليومية يظل دائما أبدا نهبا لهذه الدوافع المتناقضة . واذا سلمنا بأن الشعر - أو الفن عموما - هو عملية تنظيم للاحاسيس في نمط عضوي معين ، فان قراءة قصيدة ما من شأنها أن تنظم هذه الدوافع المتعارضة أو المتنازعة في نفس القارىء ومن ثم يصل أثناء القراءة الى حالة نفسية من التوافق والانسجام في الدوافع والاحاسيس . ذلك هو جوهر « **نظرية القيمة** » التي كونت ركنا هاما من أركان النظرية الحديثة في النقد . ويستطيع الدارس أن يجد تشابها كبيرا بين الاثر الذي يحدثه الشعر عند ريتشاردز ونظرية التطهير التي نادى بها ارسطو في حديثه عن المأساة في كتاب « الشعر » الا أن ريتشاردز استطاع أن يعطى نظريته صيغة علمية لم تتوفر للفيلسوف الاغريقي العظيم ، مستفيدا من نظريات علم النفس الحديث ومرتكنا الى الاطار العام الذي تتحرك مدرسة النقد الحديث في داخله ، وتعنى به اطار الموضوعية في الشعر أو الفن بشكل عام .

سمير سرحان

إسعاف النشاشيبي

بقلم : كامل السوافيري

فى الثانى والعشرين من يناير منذ سبعة عشر عاما لبى أديب العربية الكبير محمد اسعاف النشاشيبى نداء ربه فى القاهرة فلم تقد عيناه برؤية اشلاء قومه متناثرة فى الدروب ، ولم يذب قلبــه حسرة على ما اصاب وطنه فلسطين .

واسعاف النشاشيبى علم من أبرز أعلام الفكر المعاصر ، وكوكب متألق فى سماء الأدب الحديث ، سار اسمه على كل لسان ، وذاع أدبه فى كل قطر ، وملأت شهرته الآفاق .

وأدل سمة تميز الفقيد حبه للعربية ، واعتزازه بالعرب ، وافتخاره بالاسلام ، فكانت اللغة العربية أو فتاة الجزيرة ـ كما كان يحلو له أن يسميها ـ فتاة أحلامه التى شغفته حبـا . تغنى بعظمتها وروعتها ، وترنم بفصاحتها واعجازها ، وسخر بيانه للاشادة بمكانتها ، والاعلاء من قدرهـا ، والدفاع عنها ، وجعل من هذا البيـان الخالق المبدع نارا تحرق من غض من قدرها أو انتقص فضلها .

وهام اسعاف بنبى العرب محمد صلى الله عليه وسلم فاستلهم منه معـانى السمو ، واستمد من سيرته روح القوة والبطولة .. لقد نظر اسعاف الى اللغة العربية نظرة عميقة باعتبارها أقوى دعامة فى دعائم القومية العربية ، وأعظمها اهمية ، وأكبرها أثرا . فباللغة العربيـة عبرت الأمـة العربية عن أفكارها ومشاعرها ، وباللغة العربية نزل القرآن الكريم المعجز بفصـاحته وبلاغته ، وباللغة العربية حفظنا تراثنا الذى به نعتز ونفاخر ، فلا غرو أن يعتبر اسعاف اللغة بانهـا الأمة ، ويعد الأمة هى اللغة حين يقول : « اللغة هى الأمة والأمة هى اللغة وضعف الأولى ضعف الثانية وهلاك الثانية هلاك الأولى .. وان يعتبر اللغـة ميراثنـا العظيم الذى ورثناه عن آبائنا ، وأننا ينبغى أن نحرص على هذا الميراث ، فيقول « واللغة ميراث أورثه الآباء الابنـاء وأحزم الوارث صائن ما ورث ، وأسفههم فى الدنيا مضيعه وانا أمم اللسان الضادى لعرب ، وان لغتنا لهى العـربية ، هى الارث الذى ورثنـاه ، وانا لحقيقون ـ والاباء هم الاباء ، واللغة هى تلك اللغة ـ بان نقى عربية الجنس وعربية اللغة . نقى العربيتين مما يضيرهما او يوهنهما » . ويبين فضـل اللغة العربية على غيرها من اللغات فيقول : «واذا تنافرت اللغات يوما وتساجلت جاءت فتـاة الجزيرة سيدة عقيلة وجئن اماء ، واذا طلعت تضـاءلن امامها ثم غربن وغـربن كالشمس اذا نجمت لم تبد كواكب السماء » وحب اسعاف للعربية واعتزازه بالعربى ، وهيامه بالعرب كل أولئك جعله يسمى معظم كتبه بما يحمل هذه المعانى ومن هذه الآثار « قلب عربى وعقل أوربى » القدس ١٩٢٤ ، «كلمة فى اللغة العربية» القدس ١٩٢٥ «العربية وشاعرها الاكبر احمد شوقى و « اللغة العربية والاستاذ الريحانى » و «العربية فى المدرسة» القاهرة ١٩٢٨ ، و «البطل الخالد صلاح الدين ، والشاعر الخالد احمد شوقى» القدس ١٩٣٢

واسلوب النشاشيبى ذوب روحه وابن نفسه وخليقته وطريقته لم يقلد فيه أحدا ، ولم يتأثر نهج كاتب «وانما هى الفاظ عربية مضرية عرفها «وملكه وهبها وتتجلى فيه الشـدة التى تتمثل فى خلق اسعاف والقـوة التى تتمثل فى نفسه ، والوضوح الذى يتمثل فى طبيعته .

وقد دعا اسـعاف أدباء عصرنا الى ورود الينابيع العذبة الصافية: القرآن الكريم ، والحديث الشريف، وامهات الكتب العربية كالأغانى والأمالى ، والكامل والبيـان والتبين ليشيدوا بناء لغتهم على أقـوى الأسس .

ودعوة النشاشيبى جعلتنى أتســاءل اليوم عما كان سيصيبه من حسرة وألم لو امتد به العمر فعاش حتى هذه الأيام ورأى كيف يتعجل فريق من الناس الشهرة فيسودون الصفحات بكلام أجوف ظانين انه من الأدب والأدب يبرأ منه ، وكيف يكتب فريق آخر فنون الأدب باللغة العامية زاعما أن واقعية الفن تملى عليه ذلك ، وكيف تشن الهجمات على معاقل الفصحى ومنابع التراث ؟

وعادت بى الذاكرة الى تلك الكلمات النارية التى نشرها الفقيد فى مجلة الرسالة تارة باسم السهمى وثانية باسم أزهرى المنصورة وثالثة باسمه الصريح فاخرس بها الألسنة المتطاولة على بنت عدنان ، والجم بها المعتدين على تراثنا القديم .

ولد النشاشيبي فى مدينة بيت المقدس سنة ١٨٨٢ وفى كتاتيبها تلقى دراسته الأولى ثم أرسله والده الى المدرسة البطريركية فى بيروت حيث قضى بها اربعة أعوام درس فيها أصول اللغة وتذوق فنون الأدب ، وسحرته اللغة العربية برشاقة أساليبها وأناقة عباراتها ، وجمال مفرداتها . وعاد الى فلسطين فكان أول نجم لمع فى سمائها الأدبى فى ذلك الوقت وعلى وجه التحديد فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى . اذ اخذ يملأ أنهار الصحف الادبية التى كانت تصدر فى القدس من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٣ بالسوان من أدبه فى الشعر والنثر .

ولما خمدت الحرب ، وابتليت فلسطين بالانتداب الذى فرض عليها تحقيقا للوعد المشئوم ، وأنشئت بها ادارة بريطانية للمعارف اختير الفقيد مدرسا للغة العربية ثم اختير مفتشا عاما لها فنهض بها ، ورفع لواءها وأشرب الطلبة حبها وقدم للناشئة كتابيه : مجموعة النشاشيبى سنة ١٩٢٣ والبستان سنة ١٩٢٤ مختارا فيهما من عيون الشعر وبدائع النثر ما يتمشى مع نمو الطلبة العقلى فى الاستظهار والدراسة . وبعد سنة ١٩٣٠ اعتزل ادارة المعارف، وانصرف عن الوظيفة وعكف على القراءة والبحث والقيام بالرحلات الشتوية لمصر والشام . وفى سنة ١٩٣٦ قدم للمكتبة العربية كتابه العظيم الاسلام الصحيح الذى قرأ من اجله مايزيد على الف مرجع .

وابتداء من سنة ١٩٤٥ أخذ يقدم لقراء الرسالة مختارات من عيون الادب العربى تحت عنوان «نقل الاديب» .

وحين حضر للقاهرة قبل وفاته حمل معه ثلاثة كتب : نقل الأديب ، وأمالي النشاشيبى ، والتفاؤل عند أبي العلاء . وقد نشر الأول فى بيروت سنة ١٩٥٦ وقدم له وترجم لمؤلفه الدكتور اسحق موسى الحسينى أما الكتابان الآخران فلم يكتب لهما أن يريا النور .

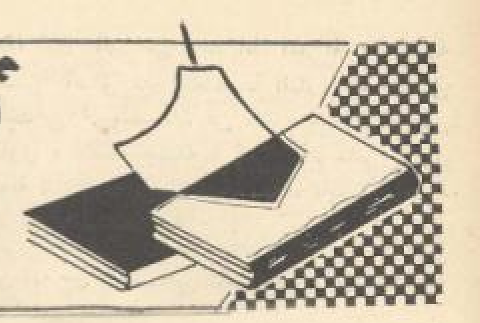
❋❋❋

استظهرت فى مقاعد دراستى بمدرسة السوافير فى بواكير طفولتى مقطوعة شعرية وكلمات نثرية مما اختار النشاشيبى فى بستانه لتلاميذ المرحلة الابتدائية ، وفى فجر شبابى اسعدنى القدر بلقاء النشاشيبى والتعرف اليه فى فلسطين حيث استمعت اليه خطيبا يهز القلوب ، ويخلب الأفئدة وقرأت بعض آثاره،وعشت فترة مع كتابه: الاسلام الصحيح، وامتدت بى الايام فلقيته فى القاهرة ، وشهدت مع أعلام الادب والفكر ـ نديه فى فندق الكونتننتال الذى كان ينتظم عقده كل امسية ، فى فصل الشتاء ، واصغيت اليه فى اعجاب وهو يطوف بنا فى رياض الأدب ويروى روائع الشعر ، وغرائب التاريخ ، ونوادر الأمثال ، ويسوق الشواهد ، وينشد الأبيات ، ويصل القديم بالحديث كأنما يقرأ من كتاب مفتوح ، وأكبرت علم الرجل وأدبه وسعة اطلاعه وساءلت نفسى : كيف حصل اسعاف من العلم ما حصل ، ووعت ذاكرته ما وعت ؟ وخيل الى أن اسعاف قد وعى كل ما كتب فى اللغة ، واستوعب ما ألف فى الأدب وهنا استعير بيان الاستاذ « أحمد حسن الزيات » اذ يقول عنه بعد وفاته فى العدد ٧٦١ من الرسالة الصادر فى ٢ فبراير سنة ١٩٤٨ :

« لا تستطيع أن تذكر له كتابا من كتب العربية لم يقرأه ، ولا بيتا من شعر الفحول لم يحفظه ، ولا خبرا من تاريخ العرب والاسلام لم يروه ، ولا شيئا من قواعد اللغة ونوادر التركيب وطرائف الأمثال لم يعلمه » .

❋❋❋

ووفاء للفقيد أتمنى أن يقام له مهرجان فى القدس أو فى القاهرة يتناول فيه أصدقاؤه الأعلام جوانب عبقريته ونواحى ثقافته ، وأن يعاد نشر كتبه وآثاره . ومنها ما يمكن جمعه فى كتاب واحد يضم كل ماقال عن اللغة العربية ، وأن يترجم له فى كتب الأدب وتختار من كلماته نصوص للطلبة ، وأن يدرس أدبه فى الجامعات والمعاهد . لقد قال اسعاف عن مصر فى كتابه العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقى « الا ان محمدا وذكر محمد وقرآن محمد ولغة محمد وعربية محمد وأدب محمد كل ذلك لن يزول وكل ذلك لن يبيد وفى الدنيا مصر » .



تعقيبات

بقلم : عباس خضر

شياطين المعركة!

المعركة الأدبية الأخيرة أخذت ألوانا شتى من الصراعات . بعضها حقيقي . وبعضها وهمي أو يلبس الحقيقة بالوهم ..

وقد دخل فيها – الى جانب المتعاركين الأصلاء – من يقذف هذا بحجر أو حصاة ، ومن يحفن حفنة من التراب ويذريها في وجوه الآخرين ... ومن يأخذ أقباسا من نار المعركة ويرمي بها فتعلق ببعض الأشياء فتنتشر منها رائحة شياط لا تستطاب .

ونرى من واجبنا أن نقول لهذا أو ذاك : لا ، يابني .. أو يا أخي عيب .. لا تفعل هذا .. أو ليس الأمر هكذا .. أو مثل ذلك .

ونقول ذلك لأن هؤلاء الذين يقذفون بالحصى والحجارة والنار والتراب يعتلون منابر ذات قيمة لا بد أن تجعل لكلامهم أثرا في بعض القراء .

في مقال تحت عنوان « **نحو اتحاد ثوري للأدباء والكتاب** » بجريدة الجمهورية (الخميس ١٤/١/١٩٦٥) يصور الأخ فاروق منيب المسألة على أنها ابعاد للأدباء «**التقدميين**» عن جمعية الأدباء والمجلس الأعلى ولجانه والاقتصار في هذه الهيئات على « **الجامدين** » الذين « **يعتقدون أن المرأة هي المتعة والفراش** » **وأن الأعضاء الحاليين في الجمعية وفي المجلس الأعلى لا يكونون الكيان الحقيقي للأدباء والكتاب** .. أو كما يقول : « **من اجل هذا كله (يعني تأخر الأعضاء وعزلتهم) وضح المطلب الضروري .. أن تلتئم جمعية الأدباء والمجلس الأعلى بكيان الأدباء والكتاب الحقيقي ..** »

وهذا « **الكيان الحقيقي** » يذكرنا بما كان يقوله أعضاء حزب الأحرار الدستوريين من أنهم « **أصحاب المصالح الحقيقية في البلد** » .

والمقال يرمي الى ضرورة تكوين « اتحاد ثوري للأدباء والكتاب » كما يدل عنوانه وطبقا للهتاف المختوم به .. وهو « **عاشت وحدة الكتاب الثوريين**»!

وأقول للأخ فاروق منيب : ان الأدباء والكتاب الثوريين الذين تعنيهم وتطالب بضمهم الى جمعية الأدباء .. كلهم أعضاء في الجمعية .. لا في الجمعية العمومية فقط ، بل منهم أعضاء في مجلس الادارة، وما أظنك تحسب **أحمد بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوي** عضوي مجلس الادارة من الرجعيين المتأخرين ! والمجلس الأعلى تتمثل فيه كل الاتجاهات الأدبية ، وما من لجنة من لجانه الا تشتمل على أعضاء من « ذوي الكيان الحقيقي » الذين تعنيهم ، وما أظن **يوسف ادريس ونعمان عاشور** مثلا عندك من غير ذوي هذا الكيان ! لجنة واحدة فقط – هي لجنة الشعر – ليس فيها من يمثل الشعر الجديد ، والمعركة الحقيقية كما قلت من قبل هي بين شكلي الشعر : التقليدي والجديد ، وما عدا ذلك اوهام أو أسباب يتذرع بها لأغراض أخرى .

والمؤتمرات والمهرجانات هي أيضا غرض من الأغراض .. وقد جاء ذكرها في مقال الأخ فاروق .. ويظهر أنه لم يطالع في الصحف أسماء مثل « **يوسف ادريس وصلاح عبد الصبور** » في وفد مؤتمر الأدباء العرب ومهرجان الشعر اللذين يجتمعان قريبا ببغداد . ولعله يلاحظ أن صلاح عبد الصبور يمثل الشعر الجديد .

أما مسألة المرأة من حيث الآراء التقدمية والرجعية في شأنها بين أعضاء الجمعية والمجلس ولجانه .. فحسبي أن انبه الأخ الى أن رائدتين من رائدات

النهضة النسائية من أعضاء هذه الهيئات ، وهما الدكتورتان : بنت الشاطىء ، وسهير القلماوى .

ذلك لون من « **شياط المعركة** » وهو من الوان « التقدميين » الذين يحتكرون التقدمية والثورية والكفاحية .. ويرونها مقصورة عليهم !

وهاك لونا يمثل الطرف الآخر بحق .. فاذا كنا نرى ذلك اللون زعما ووهما فان هذا اللون حقيقة، وهو حقيقة مؤسفة .. فالأخ عبد الكريم الخطيب – فى مقاله « أصل القضية » بالعدد ٧٨ من الرسالة – يرى أن الشعر الجديد ليس كلاما .. او كما يقول : « **وبلية الشعر الجديد هذا أنه ليس كلاما أصلا !!** »

لماذا يا أخى ؟ ألا ينطبق عليه قول ابن مالك : « **كلامنا لفظ مفيد كاستقم** » ؟!

ويرى الاخ عبد الكريم أن « أصل القضية » **يكمن فى أن الشعر الجديد انما هو محاربة للدين ..** لماذا ؟ لأنه « يعرض اللغة العربية لخطر داهم من شأنه اذا امتد واستشرى أن يذهب بهذه اللغة » وبما أنه كذلك يجب أن « يذكر الذاكرون أمر الدين وما يلحقه من هذا الضياع الذى تتعرض له اللغة .. فانه فى اليوم الذى تضيع فيه معالم اللغة العربية وتنطمس مدلولات كلماتها ومفاهيم أساليبها .. فى هذا اليوم – لا كان – تنقطع بين المسلمين وبين الاسلام كل علائق الصلات التى تصلهم به ، وتضيع معالم السبيل التى يردون منها موارده وينهلون من مناهلها ! » .

وانى أطمئن الأخ عبد الكريم .. فلن يؤدى الشعر الجديد الى شىء من هذا أبدا .. فان أصحابه يقولونه بلغة عربية فصيحة مبينة ، بل هى فى شعر بعضهم أفصح وأبين منها فى شعر بعض التقليديين .

ومسالة الدين هنا – يا اخى – مقحمة ، وهى نغمة قديمة جدا .. عزف عليها كل من اعترضوا طريق التقدم فى عصرنا الحديث ، ومن أوائلها ما حكاه الدكتور طه حسين فى كتاب «الأيام» من قول أحد المشايخ : « .. **ومن ذهب الى فرانسا (بكسر النون) فهو كافر او على الأقل زنديق !** »

وبما أن كثيرا من المسلمين ذهبوا الى فرنسا وعادوا غير كافرين ولا زنادقة .. فان الشعر الجديد كذلك لن يعرض الدين لأى ضياع !

وهذا لون ثالث من « شياط المعركة » يشبه ما يلتصق بأسفل قدر تحتها النار وقد غفل عنها الطاهى .. مقال عن مسرحية عبد الرحمن الشرقاوى « مأساة جميلة » ، كتبه الأخ عامر بحيرى فى مجلة الثقافة – العدد ٧٧ – تابع فيه حملة ضريرة على هذه المسرحية .

أظن انه من البدهى المعروف والمجمع عليه **أننا لا نعادى الشعوب التى تعادينا حكوماتها وافراد** منها، بل على عكس ذلك ندعو الى السلام العالمى الذى يقوم على تآخى شعوب العالم فى الانسانية ، وأن الناس الذين يسخطون ويثورون على القوى الاستعمارية فى بلادهم نعدهم أصدقاء ونشيد بهم، مثل « سارتر » بالنسبة للجزائر ، وبرنارد شو بالنسبة لحادث دنشواى . وقوميتنا العربية ليست تعصبا عنصريا ، بل هى انسانية فى غاياتها البعيدة.

كنت أحسب أن هذه الحقيقة بدهية لا تحتاج الى تقرير أو شرح ، ولكن ما قرأته فى مقال عامر بحيرى خيب ظنى ..

ذلك أن عبد الرحمن الشرقاوى صنع فى مسرحيته « **مأساة جميلة » صنعا انسانيا أكسبها قيمة أدبية عالمية ، الى جانب ما قامت عليه من الوطنية العربية وتصوير كفاح العرب فى الجزائر** . اذ أتى ببعض الشخصيات الفرنسية وعبر على لسانها عن سخطها على قادة بلادهم الذين يسوقونهم الى حرب الآمنين فى بلادهم والاعتداء عليهم .

ومن تلك الشخصيات شخصية « سيمون » الراقصة الفرنسية التى ساعدت مجاهدى الجزائر فى تدبيرهم ضد الجنود الفرنسيين . ولا يعجب الأخ عامر بحيرى تبرير « سيمون » لمساعدتها الجزائريين بقولها :

« **من اجل فرنسا ما أصنع !**
من أجل القيم الفاضلة المتهنة فى وطنى الضائع ! »

ويؤسفنى أن أحتاج الى شرح هذا الكلام ، كما احتجت الى تقرير تلك الحقيقة المعروفة . فالسيدة الفرنسية ترى بحق أن قادة بلادها الاستعماريين يعملون ضد فرنسا نفسها ، وأنها اذ تقاومهم تعمل على خدمة فرنسا .

وكذلك يرى المحامى الفرنسى الذى دافع عن

« جميلة » فينبه قومه الى خطأ ما يفعلون مما يشوه تراث فرنسا ويلطخ جبينها بالعار .

وهل أحتاج مرة ثانية الى أن أقول اننا لسنا أعداء لفرنسا الشعب .. ؟

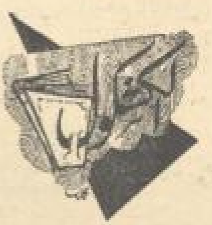
الحق انني مندهش ، والقلم لا يطاوعني في شرح البدهيات ومناقشة أمور ظاهرة الخطأ ، وما أصعب أن تدلل على أن الشمس ساطعة في نهار لا غيم فيه .

ان المسرحية كلها تمجيد لجميلة وسائر المجاهدين الجزائريين ، أفلأنها اشتملت على تصوير أفراد من أعدائهم في صورة مشرقة ، لأن الحق والخير يشرقان في نفوسهم فيرون سوء ما يفعل قومهم ــ نقول ان المؤلف يمجد فرنسا لا الجزائر ويشيد بسيمون لا بجميلة !!

أليس تصوير هؤلاء الأفراد نفسه باعتبارهم ساخطين على فظائع قومهم ــ هو نفسه معززا للمعنى العام في المسرحية ، اذ يعتبر من قبيل ما نقول في مثله : وشهد شاهد من أهلها ؟

ومن أمثلة الفهم العجيب عند الاخ عامر بحيري أن « سيمون » راقصة .. وهي لهذا غير جديرة بالموقف الحسن الذي وضعها فيه المؤلف !

ألا تشم رائحة الشياط ؟!



● ذكرني ما قاله الأستاذ شاكر في مقاله بالعدد الماضي من الرسالة في الدكتور محمد مندور **من أنه « ينقد » دون أن يقرأ ما ينقده** ــ ذكرني ذلك بالحكاية التالية :

على اثر ظهور ديوان « **شفق** » للأستاذ العوضي الوكيل كتب الدكتور محمد مندور في جريدة الجمهورية « ينقد » الديوان ، فكان مما قاله أن الشاعر لفرط حبه للطبيعة ومظاهرها سمى ديوانه « شفق » ، ولم يفته ــ أي مندور ــ أن يتحدث عن منظر الشفق وأسره للشعراء ..

والواقع ان معظم شعر الديوان قاله الشاعر في أسرته وأولاده ، ومن بينهم ابنته « شفق » التي ظفرت وحدها بقصيدة تحت هذا العنوان الذي سمى به الديوان !

● في ندوة « فكر وفن » بالبرنامج الثالث للتليفزيون العربي ــ كان الدكتوران رشاد رشدي وفايز اسكندر يقدمان ثلاث مسرحيات قصيرة لتشيكوف ، فقال الثاني : **ان رشاد رشدي هو أول من ترجم لأنطون تشيكوف الى العربية !!**

والدكتور رشاد رشدي يعلم ــ لا بد ــ انه ليس أول ... الخ ، وكنت أحب أن يرد ببيان الحقيقة ، **وهي أن كثيرين ترجموا لتشيكوف الى العربيه قبله .**

قرأنا كثيرا من قصص تشيكوف القصيرة التي ترجمها المرحوم محمد السباعي في العشرينات من هذا القرن ، وقد جمعها ولده يوسف السباعي مع غيرها في كتاب « **مائة قصة** »

● كان الدكتور لويس عوض قد قدم أول حلقة من قصة « **الشحاذ** » لنجيب محفوظ التي تنشر الآن مسلسلة في ملحق الأهرام الأدبي ، وقال في التقديم انه قرأ القصة وأعجب بها ، ورآها خطوة جديدة في فن نجيب محفوظ تضعه في الصف الأول من الكتاب العالميين .

وقد قرأت الأجزاء التي نشرت من قصة الشحاذ، وأتمنى أن يكتب نجيب محفوظ مالا يعجب لويس عوض !

● في احدى حلقات البرنامج الخاص الذي يقدمه البرنامج العام للاذاعة عن « صاحب البردة » الامام البوصيري ــ قال فقيه الكتاب للصبي محمد ابن سعيد (البوصيري) : يجب أن تتكنى .. وبين له ما يقصده بالتكني فقال : تنتسب الى بلد من البلاد ولتكن كنيتك من الآن البوصيري ..

وذلك خطأ ، لأن الكنية هي ما تصدر بأب أو أم كأبي الطيب وأم أحمد .

● كنت أوثر الا يكتب أستاذ الأساتذة **الدكتور طه حسين** ــ ملخصات القصص التي تنشرها أخبار اليوم ، وأن يدخر طاقته الثمينة لتآليف أجدى . أطال الله حياته وأمتعه بالصحة والعافية .

عباس خضر

حول الأدب في الشعر

بقلم عبده بدوي

الشاعر والموت

يمكن أن يقال ان « بدر شاكر السياب» عاش الحياة كأعمق ما تكون الحياة ، وانه مابين عامى ١٩٢٦ ، ١٩٦٤ قد عاش فى الوهج من كل شىء ، قد عرف النار ، والخوف ، والقلق ، والانتظار ، وقد كان وراء كل هذا شىء رهيب اسمه «الموت» :

فالموت هو البطل الحقيقى فى حياة بدر شاكر السياب ، صحيح انه لم يظهر له بكافة ملامحه فى ديوان «ازهار وأساطير» ولكن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن هذا الديوان كان تمهيدا للرؤية الحقيقية للموت ‥ تمهيدا لان يحس الشاعر أن الموت يعيش فيه كما تعيش الحياة، وان هذا الموت يمكن أن يتغلب على الحياة فى اية فترة من فترات النهار ، او اية قطرة من قطرات الليل ، وكان شكسبير قد عبر عن هذه الحالة حين قال : « لم يات اليوم بعد ولكنه آت لامحالة ! » فهو فى هذه الفترة الاولى يدخل فى تجارب الحياة ، ولكن سرعان ما يكتشف أن هذه التجارب تنتهى بالاحباط ، ومن هنا يكثر حديثه عن الشتاء والخريف ، وعن القطرة التى بين الاهداب ، وعن الخوف من أن يصيح أحد السمار بقوله : « أحبا وخابا فواحسرتاه ! » ، وعن المناديل الحيارى التى تومىء بالوداع أو تشرب الدمع الثقيل ، وعن الضياع مع الضباب ٠

والشاعر يدرك فكرة الموت فى أول الامر محنة ، ولكنها تطل من كلماته على استحياء ، فهو لايقصد اليها ، وهو لايتحدث عنها الا حين تصبح أمامه حقيقة ٠

● أشباح غناء

تتنهد فى الحاكى وتدور كأعصار

بال مصدور

● وهويت أنشقها فتصعد كلما صعد العبير

من صدرى المهدوم حشرجة فتحترق العطور

تحت الشفاه الراعشات ويطفأ الحقل النضير

شيئا فشيئا ‥ فى عيونى ثم ينفلت الأسير !

● أظل أذكرها ‥ وتنسانى ؟

وأبيت فى شبه احتضار ، وهى تنعم بالرخاء

● التقيلة ؟ كان شوقى للقياك اشتياقا الى الضياء الحزين ...

واحتشاد الوجوه فى الغربة الجوفاء ، والشاى، والخطا ، واللحون .

فالشاعر فى هذه الفترة يتحرك بالمرض ، ويحس أن الحياة مازالت كالفراشة التى تحط فوق زهرة عمره الهزيلة ، ولكن هذه الفراشة تطير ويحط مكانها شىء ثقيل يسمى «الموت» ، وهو لايستقبل هذه الفترة بالذعر ، وتلاحق الانفاس ، واتساع الحدقتين ، ولكنه يستقبله وهو يحس أنه لابد أن يفتح له الباب كما فتح له صدره من قبل ، ومن هنا لا يصبح الموت مقيما فى صدر الشاعر فقط ، ولكنه يقيم فى كل شىء من حوله ، فنحن نرى الموت يملأ قرية جيكور فى أول الامر ، ولكنه يغادرها الى كل مكان فى العالم، ولما كان الشاعر فى هذه الفترة أصبح يضع عينيه وقلبه على الحياة ، فانا نراه يملك عالما عليلا يختفى الموت وراء كل معالمه .

وينظر حوله فيجد شاعرين يؤنسان رحلته ، أما أولهما فهو الشاعر الانجليزى جون كيتس الذى مات بالسل (نفس الداء) فى الخامسة والعشرين ، وهو حين يستحضره لايستحضر منه غير قصيدته التى كانت آخر ماكتبها ، والتى كان يخاطب بها كوكبا فى السماء :

● وتمتد يمناك نحو الكتاب
كمن ينشد السلوة الضائعه

فتبكى مع العبقرى المريض
وقد خاطب النجمة الساطعه

« تمنيت يا كوكب
ثباتا كهذا ـ انام
على صدرها فى الظلام
وافنى كما تغرب »

ثم هو يهدى قصيدة الى الشاعر الفرنسى شارل بودلير ، وحين يختمها يقول :

● ... صكنى العباب

يقذفنى من شاطىء لشاطىء قديم
حملت من قراره محارة العذاب
حملتها اليك

فمد لى يديك

وزحزح الصخور والتراب.

صحيح انه انزعج لنبوءة عراف هندى تقول بان الحياة ستنتهى على الارض فى عام ١٩٦٢ ، فى قصيدة «نبوءة ورؤيا» وانه كان يتشبث بالشمس لكيلا تغرب لانه لا يأتى مع الليل سوى الموتى كما فى قصيدة (الام والطفلة الضائعة) ولكنه أصبح يحس انه لاامل فى عودة الفراشة التى طارت من فوق زهرة عمره ، وانه أصبح لايحس الا هذا الشىء الثقيل اللزج الذى يسمى الموت ، واذا كان هذا الاحساس واهنا فى ديوان المعبد الغريق ، فانه أصبح حقيقة مؤكدة فى ديوان منزل الاقنان، بحيث أصبح احساسه بالموت كهذا الاحساس الذى عبر عنه الشاعر بيتس من أنه لايخرج عن كونه انتقالة من حجرة الى أخرى.

لقد كان يأمل فى بعض الاحيان ، ولكنه هذا الأمل الخاطف الذى لايختلف فى ملامحه عن اليأس والذى يمكن أن نراه فى قصيدة (صياح البط البرى)

● صياح كأجراس ماء.. كأجراس حقل من النرجس

يدندن والشمس تصغى ، يقول :

بأن المطر
سيهطل قبل انطواء الجناح
وقبل انتهاء السفر !

كما يمكن أن نراه فى قصيدة «نداء الموت» فبينما تصيح به آلاف القبور ، نرى به جذوة من حريق الحياة تأبى الموت ، وتتوهج هذه الجذوة حين يناديه ابنه غيلان ، ولكن أم الشاعر الميتة سرعان ما تطلب اليه أن يسرع اليها لكى يدفىء عظامها ، ومن هنا نرى الشاعر يلقى كلمات تقول : (خريف ، شتاء ، أصيل ، أفول) .

ثم يطلب من قبر أمه أن يفتح له ذراعيه ، فالام التى تمثل الشىء الثقيل اللزج ، أصبحت أقوى عنده من الابن الذى يمثل الفراشة الرفافة .

بل ان الموت يصبح عنده بعد ذلك شيئا محبوبا ، حين يصل الشاعر الى مرحلة تشبه التصوف بحيث يمكن القول بأن الشاعر قد أصبح يعيش بالموت أكثر مما يعيش بالحياة ، وانه يجب أن يتحول الى أيوب عصرى تتوهج فيه نبوة المرض والموت والرضى فى وقت واحد .

● لك الحمد ، ان الرزايا عطاء
وان المصيبات بعض الكرم
الم تعطنى انت هذا الظلام
واعطيتنى انت هذا السحر ؟
فهل تشكر الارض قطر المطر
وتغضب ان لم يجدها الغمام
شهور طوال وهذى الجراح
تمزق جنبى مثل المدى
ولا يهدأ الداء عند الصباح
ولا يمسح الليل أوجاعه بالردى
ولكن ايوب ان صاح صاح
لك الحمد ان الرزايا ندى
وان الجراح هدايا الحبيب
اضم الى الصدر باقاتها
هداياك فى خافقى لا تغيب
هداياك مقبولة هاتها !
اشد جراحى واهتف بالعائدين
« الا فانظروا واحسدونى
فهذى هدايا حبيبى ! »

● لانه منك حلو عندى المرض ·

● هيهات تشكو نفسى الراضيه

والشاعر قد يحب أن يصرخ فى شوارع لندن الصماء ـ حيث يستشفى بها ـ قد يحب أن يقول « هاتوا لى أحبائى » ، ولكنه لايلبث أن يقول :

● ولو انى صرخت فمن يجيب صراخ منتحر
تمر عليه طول الليل آلاف من القطر ·

وقد يأمل أحيانا فى الشفاء ·· فى العودة الى زوجته اقبال ·· فى العودة الى ولده غيلان ·· ولكنه حتى وهو يأمل هذا ، فانه يقدمه فى جو يائس حزين كانه يقول له لا أمل ·· لا (ثلاث مرات) فى مقابل الامنيات الثلاث ، ولكن لا أمل أبدا ·· لا أمل أبدا ·

تلك هى المشكلة الحقيقية فى هذا الشاعر ، لم يقف عندها من الخارج ، ولكنه تعمقها واصبح ينظر من خلالها الى الوجود نظرة رحيبة لا تقف عند ماساته فقط ، ولكن عند ماساة الموت بالنسبة للانسان ، ولقد عمق هذه الماساة أن الشاعر كان يدرك ادراكا خفيا انه لا أمل فى أن يعيش طويلا ·· لا أمل فى نشدان بعث تموزى يعود به من الموت أو شبه الموت ·· لا أمل الا فى الموت ·· الا فى الموت !!

ونحن نجد دقات الموت الرهيبة تطرق عليه بابه ، ثم صوته ، ثم جوهر وجوده فى كافة المراحل التى مر بها ، نجد هذا الموت يتسلقه كلبلابة ضعيفة ، ثم نجد هذه اللبلابه تتحول الى حية تلفه وتضغطه ، ثم نجد هذه الحية تتحول الى مئات الحيات ·· ونجد الشاعر يعيش وهو يعتصر ويلتهم شعاعا شعاعا ، ثم يحدث صدع فى الشمس ، ثم تسقط قطعة من الشمس ، ثم تتوارى الشمس !

لقد عاش فترة رومانسية مجهدة ، وكان لابد له أن يعبر فترة كبيرة من خلالها ، بل كان يمكن أن يتحول الى زهرة مطرقة فى بساتينها الجيبة ، ولكن الشاعر يشد نفسه ثم يضعها فى غليان الشيوعية ، ثم يجرجر نفسه ليلقى بها فى حلم عودة تموز ، ثم يجد انه لاصدر له أخيرا الا فى القومية العربية ·· فهى الام التى لا ترفض عودة الابن مهما طالت فترة الانتظار ، ومهما كان الانتظار قاسيا وحزينا ، ولقد كان هذا الانتظار قاسيا وحزينا ، ففى هذه الفترة انكر أشياء كثيرة على الأم لعل فى مقدمتها انكاره أن قطعة من قلبها فى فلسطين ، ثم كانت فترة ضياع أخرى حين ارتبط ببعض المجلات ودور النشر فى بيروت ، ولكن أحدا لاينكر انه فى كافة هذه المراحل كان شاعرا يتطور ، كان شاعرا حتى أنامل أصابعه، ولن يقلل من هذه الشاعرية فترة الصراخ ، ونظم الشعارات فى الفترة التى ألقى بنفسه فى الشيوعية·

***

ان هناك من سيقف طويلا عند شعر بدر شاكر السياب ، فسيجد نقاد التفعيلة عنده ما يكيدون به الشعر المتجدد ، وسيجد من يتعاطفون مع القومية من يؤكدون أن قيمته الحقيقية لم تظهر الا حين أحس انه يقف على أرض بلاده وتاريخها ، وبعد أن اختفى عنه بخار الشيوعية ، ثم ضباب المفاهيم الغربية ·· ولكن أحدا لا يختلف فى أن الموت كان البطل الحقيقى فى حياته ، وان المحلية قد تتحول الى العالمية متى وجدت الشاعر الواعى بحقيقة المحلية والعالمية ·· فاقبال الزوجة تتحول الى الانتظار ، وغيلان الصغير

يتحول الى الامل الباقي للانسانية ، وقرية جيكور تتحول الى نقطة احتكاك بالكون ٠

● وجلست تنتظرين هائمــة الخواطر في دوار « سيعود ٠ لا ٠ غرق السفين من المحيط الى القرار سيعود ٠ لا ٠ حجزته صارخة العواصف في أسار يا سندباد ، اما تعود ؟

كاد الشباب يزول ، تنطفىء الزنابق في الخدود فمتى تعود ؟ »

● اسمعه يبكي ، يناديني

في ليل المستوحد القاسي

يدعو ٠٠ أبي ، كيف تخليني

وحدي بلا حارس ؟

● جيكور ، جيكور ، ياحقلا من النور

في الليل ، في عالم الاحلام والقمر

ينشرن أجنحة أندى من المطر

في أول الصيف

ياباب الأساطير

ياباب ميلادنا الموصول بالرحم

من أين جئناك ؟ من أين المقادير ؟

من أين ظلم ؟

وأي أزمنة في الليل سرناها

حتى أتيناك ؟ أقبلنا من العدم ؟

أم من حياة نسيناها ؟

جيكور مسي جبيني فهو ملتهب

مسيه بالسعف

والسنبل الترف

مدي على الظلال السمر ، تلسحب

ليلا فتخفى عجيري في حناياها !

***

والشاعر لعمق شاعريته لايلتفت الى حرب الاديان ذلك لان في أعمق أعماقه تتلألأ جوهرة الايمان ، ومن هنا فنحن نراه يزيد طاقة الحب عنده بحب محمد والمسيح ، ولعله الشاعر الوحيد الذي فتح قلبه لكافة الثقافات والحضارات ، ومن هنا فهو يأخذ رموزه ، وأساطيره من العرب ، ومن اليونان ، ومن المسيحية ومن بعض الحضارات القديمة كاليابانية والصينية والملاوية ٠

وهو قد يضمن من هذا الرصيد في شعره ٠٠ فتتكاثف تجربته :

● وفي وهج الظهيرة صارخا
« ياحادي العيس »

● « ولما استرحنا بكينا الرفاق »
همس لأنييس عبر القرون

وهو اذا كان في طريقة بنائه هنا يذكرنا بطريقة بناء البيوت للقصيدة ، فانه يذكرنا بلوركا حين يلملم الاشياء الصغيرة والحارة من حوله ، ويذكرنا بهذا حين يتكلم عن جيكور ، وعن نهر بويب ، وعن النخيل ونقر الدرابك ، واجتماع السمار حول قصاص يحكي عن الجنيات وعن قمر الزمان ، وعن السراج الذي ينتظر العائد ، وعن انتظار جيكور لدم عروس على منديل محمود ، وعن الشرفة المغلقة (الشناشيل) لابنة الشلبي وعن أغنية شعبية تقال تحتها :

● يا مطرا ياحلبي

عبر بنات الشلبي

يامطرا ياشاشا

عبر بنات الباشا

يامطرا من ذهب

وبدر شاكر السياب لا يهشم « بالمثلثات » في القصيدة ، وبالمكعبات الصغيرة ان صح هذا التعبير وانما نراه يقدم «كادرات» هائلة تبهر أنفاس القارىء ثم يلف كل هذا بالروح الاسطوري الذي يعتبر ميزة من ميزات شعره ، والذي يتناسب مع طريقته في المزج بين الرؤى المبصرة وبين الذكريات كمــا في قصيدة مدينة السراب ، أو تضفير هذه الرؤى بالحلم كما في قصيدة (نبوءة ورؤيا) ٠

فاذا أضفنا الى ذلك أن الموضوع الرئيسي عنده وهو (الموت) ينبع من طبيعة الصور ومن أدق الظلال التي تتكون منها هذه الصور ، وان القصيدة عنـده

– في الفترة الاخيرة – كون كبير تمتزج فيه الارض والسماء والاسرة والقدر والموت .

اذا أضفنا ذلك أدركنا أن القصيدة عنده من نوع جديد في اللغة العربية .

ونحن اذا تتبعنا معمار قصيدة كقصيدة يانهر مثلا في ديوان المعبد الغريق ، نجد الشاعر يعود ثقيلا لانه محمل بالحزن ، فاذا سأل في ضفتيه عن هواه وجد الاشجار الذي أذبلها الخريف عشرين مرة ، ومع ذلك فهو منجذب الى هذا الماضي حتى ليود أن يعود فيه طفلا ليداعب الجنيات وليتعلق بشراع سفينة ، وليشد من الملاح أغانيه ، ولتلوذ النجوم بصدره ، وبينما هو مسترسل في هذا التذكر يطل الموت فجأة فيصرخ :

● ماأخيب الموتى اذا رجعوا الى الدنيا القديمة .

ثم يرثي لهؤلاء الذين يتطلعون الى الماضي لانهم سيكابدون ألم التغرب مرتين، ثم ينمو عنده احساس بانه أكثر من غريب غربة واشد حيرة ، ثم ينمو احساس القارىء أكثر فيحس أن الشاعر يتحدث عن نهر الزمن ، وان الضفة هي ضفة الأبد ، بالرغم من أن الشاعر يضع على الضفة لفترة ما فتاة تسمى «هاله» . ثم يختم القصيدة بانه لن ينسى هذه الفتاة وهو في أكفانه !

ولعل مما ساعد الشاعر على التأثير انه كان عنده دائما شيء يريد أن يهمس به الى القارىء ، صحيح انه لن يقول كلمته الا من خلال الكون كله ، ولكن من ينصت اليه يحس انه قد امتلأ بشيء .. شيء قد يكون الحزن ، وقد يكون الخوف ، وقد يكون الموت لابد من أن يحمل الذي ينصت اليه نصيبه من هذا الشجن !

ولعل من الجديد الذي أضافه بدر شاكر السياب الى القصيدة العربية ، ذلك النوع من الحوار الداخلي الذي قد يكون حديثا خاصا للابن كما في قصيدة ابن الشهيد ، والذي قد يكون صوتا لغيلان ، أو لزوجة الشاعر أو لأمه ، ولعل قصيدة (قصيدة الى العراق الثائر) توضح هذا النوع من الحديث الذي يشبه ما يقوم به «السوليست» في الاوركسترا ، والذي وان كان يعزف وحده الا أن عمله يكون من صميم العمل الاوركسترالي ، فهو في ادانته لفظائع الشيوعيين في العراق ، يسمعنا أصواتا من داخل القصيدة تقول :

● فيه الوجوه الضاحكات تقول ، قد هرب التتار والله عاد الى الجوامع بعد أن طلع النهار .
طلع النهار فلا غروب »

● رفعت الى الله الدعاء ، الا أغثنا من ثمود
من ذلك المجنون يعشق كل أحمر .
فالدماء تجري والسنة اللهيب تمد ، يعجبه الدمار .

أحرقه بالنيران تهبط ، كالجحيم ، من السماء ،
واصرعه صرعا بالرصاص ! فانه شبح الوباء ! » .

● هرع الطبيب الى وهو يقول : ماذا في العراق ؟!
الجيش ثار ومات قاسم .

اننا في هذه القصيدة نجد الحوار نابعا من نفس العمل ، بحيث لو لم يكتبه الشاعر لانبثقت هذه الأصوات في أعماق القارىء الواعي ، ولكن هذه «النضارة الصوتية» تتبدد أحيانا حين يقدمها الشاعر متعمدا من أثر قراءة أو من أثر مغالاته أحيانا في استخدام الرموز والاساطير .

***

وأخيرا فقد عاش هذا الشاعر بالموت وللموت ، ولعل فكرة (الموت) لم تقدم في الشعر العربي ، مثلما قدمها بدر شاكر السياب بمثل هذا الشجن والصبر ، والشفافية .

ولقد استوقفتني منه قصيدة (الوصية) التي يقول فيها :

● اقبال يا زوجتي الحبيبه
لاتعزليني ما المنايا بيدي
ولست ، لو نجوت ، بالمخلد
كوني لغيلان رضى وطيبه
كوني له أبا واما وارحمي نحيبه
وعلميه أن يزيل القلب لليتيم والفقير
وعلميه ...

استوقفتني هذه القصيدة ، وخيل الى أنه يخاطب بها الشعر نفسه ، فكل شاعر مسئول عن « غيلان» الآن وليس يكفي أن تجفف من عينيه وقلبه قطرات الحزن ، ولكن – الوصية تقول – أن تكون له رضى وطيبة .. أن تكون له رضى وطيبة !

« عبده بدوي »

بين ديكارت والحسن بن الهيثم

بقلم : أحمد سعيد الدمرداش

ان أشد الحركات التي بدأ بهـا الفكر العلمي الحديث في عصر النهضة الأوروبية ، قد ظهر جنينا نتيجة الثورة الكوبرنيقية التي حدثت في تقدم علم الفلك ، ففي العصـور الوسطى كانت أظهر عناصر التفكير الخضوع للسلطة - سلطة الكنيسـة أولا - ثم سلطة الكتب التي تروق في عين الكنيسة ، ولما كانت الكنيسة قد زهدت الناس في الحياة الدنيوية ، وجعلت مهمتها الأولى ما وراء المادة ، لقد ساعدت بذلك على ايجاد شيء يشبه عصر الأساطير الذي سبق ميلاد العلم والفلسفة .

وكانت نهضة العـلم التي ميزت بداية العصر الحديث مماشية لاحيـاء مذهب الطبيعة ، والقمع التدريجي لمذهب ما وراء الطبيعة ، ولم تكد الأرض تنزل عن مكانتهـا كمركز للكون الى مجرد سيارة صغيرة من سيارات الشمس في عالم المجرة ، حتى بدأ النـاس يحسون أنه قد أصبح من المستحيل اعتبار الانسان تاج الخليقة أو بطل الرواية الكونية ، وبهذا اضطربت الميثولوجية الكنسية من الأساس ، ثم فقدت سلطتها نتيجة ثورة الاصلاح الديني على يد مارتن لوثر وكلفن ، ولم يبق لديها سوى العقيدة والايمـان ، ولكن سرعان ما اهتزت العقيدة على يد البحوث العلمية التي قام بهـا كوبرنيق وديكارت ونيوتن وغاليليو ، فلم تطق الكنيسـة صبرا وحرقت جوردانو برونو حيا أحد رواد الفكر العلمي ، لعلها تقف تلك الانطلاقة المتدفقة ، غير أن المذهب العلمي استمر في طريقه مندفعا بخطوات جريئة وثابة .

ما كان لهذه الروح الجديدة التي شملت أوروبا أن ترى النور لولا وجود الحضـارة الاسلامية في الأندلس وصقلية وشمال أفريقيا ، فكانت اشبيلية وقرطبة مصادر اشعاع للعلوم في الاندلس ، وبالرمو التي ظلت تحت حكم المسلمين أكثر من مائتي عام يحج اليها طلاب العلم من جامعات سالرنو بايطاليا وبال بسـويسرا واكسـفورد وكامبردج بانجلترا والسوربون بباريس .

وتدفقت المخطوطات العربية في شتى العلوم من طبيعيات والهيات وفلسفة ورياضيات ، حينما وجد الصليبيون أنفسهم تجاه حضارة كانت أسمى بكثير من حضارتهم ، بل كان ذلك أمرا مفاجئا لهم بقي يثير دهشتهم وعجبهم ، وكانت حركة الترجمة من العـربية الى اللاتينيـة على أشـدها حمل لواءهـا قسطنطين الافـريقي وجيرار دى كريمـونا ووجـد المشتغلون بالعـلم أنفسهم أمام ينابيع فياضة من التراث الاسلامي لا ينضب معينه .

ديكارت وعلم الضـوء : كان ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) ككثير قبله شديد السخط على حال العلم في زمنه ، وكانت الدراسة الوحيـدة التي تعتبر لديه قائمة على أساس متين هي الرياضيات ، وكان ذلك في ظنه راجعـا الى الطريقـة المستخدمة في الرياضيات ، وهي التي تبـدأ بمعلومات واضـحة (البديهيـات والتعـاريف والنظريات السـابقة) وتسير بطريقة استنباطية ، حتى تصل الى نتائج غير قابلة للشك ، ولهذا أراد ادخال الطريقة الرياضية في الفلسفة كما أدخلها في دراسة علم الضوء حينما نشر كتابه في انكسار الضوء عام ١٦٣٧ ، ويصر علماء اوربا للآن ومنهم مؤرخ العلوم الفرنسي بول تانري على أن ديكارت هو أول من أعطى مثالا لما ينبغي ان يكون عليه علم الطبيعة النظرى من منهج رياضي هندسي ، غافلين عن الحقيقة أو مخادعين انفسهم عن بحوث الحسن بن الهيثم التي سبقته بأكثر من ستمائة عـام ، اذ كان أول من نادى بالاستدلال الرياضي المبني على التجربة والاستقراء .

ينظر ابن الهيثم أولا في انعكاس الضـوء على السطوح الثقيلة ، وهو يفترض أن للضوء « حركة في غاية القوة » وأن الصقيل « يمانعه ممانعة في الغاية » ، فيكون الانعكاس من أجل هذه الحركة ، ومن أجل هذه الممانعة ، ويكون رجوعه بقوة تعادل قوته قبل اصطدامه بالصقيل .

ولكي يستنبط ابن الهيثم اتجاه الحركة المنعكسة ، يعتبر الحركة السـاقطة - أو « الاعتمـاد » كما يسميه - مركبة من حركتين ، احداهما عمودية على السطح الصقيل ، والأخرى موازية له ، أما الحركة العمودية فتبطل عند التصادم بسبب ممانعة الجسم الصقيل لاعتماد الضوء في هذه الحركة ، ويتولد منها ومن ممانعة الجسم لها حركة عمودية مساويـة في الاتجاه المضاد ، وأما الحركة الموازية فتبقى على حالها بعد التصادم لعدم وجود ما يمنعها .

ومن ذلك يستنتج ابن الهيثم أن انعكاس الضوء يكون بزاوية مسـاوية لزاوية السقوط ، فالطريقة

التى اتبعها هى طريقة تحليل الحركة – باعتبارها كمية موجهة – الى مركبتين ، او كما يقول «قسطين» متعامدين ، ثم تركيبها من قسطين : أحدهما هو القسط الموازى الأول ، والآخر يساوى القسط العمودى الأول فى المقدار ويضاده فى الاتجاه ، ثم أخذ يتساءل لم ينعكس الضوء على الصفة التى ينعكس عليها ، وكانت نظريته « لمية الانعكاس » قد استنبطها من مثال ميكانيكى ، بدأ يشرح ما يحدث اذا كرة صغيرة صلبة ملساء متحركة لقيت جسما صلبا يمنعها من الاستمرار فى حركتها على السمت الأول ، وقاس على هذا المثال الميكانيكى انعكاس الضوء ، قاسه بجهاز اخترعه بنفسه سماه آلة الانعكاس ، وهو يتركب تركيبا يختلف اختلافا عظيما عن الجهاز الذى ذكره بطليموس فى كتابه المناظر ، وجعله ابن الهيثم بأبعاد خاصة ومقاييس معينة ، كما جعله ذا أجزاء مختلفة بحيث يصح استعماله، لا للبحث عن كيفية انعكاس ضوء الشمس وحده ، بل للبحث عن كيفية انعكاس الأضواء العرضية أيضا ، ولا للبحث عن كيفية انعكاس الضوء عن سطح المرآة المستوية وحدها بل للبحث عن كيفية انعكاس الضوء عن سطوح المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية المقعرة منها والمحدبة، وكان جهازه كفيلا بتحقيق الأوضاع المختلفة التى يجب أن توضع عليها تلك المرايا للتأكد من وقوع الشعاع الساقط والشعاع المنعكس والعمود من نقطة الانعكاس جميعا فى مستوى واحد ، بل كفيلا أيضا بقياس مقادير زوايا السقوط ومقادير زوايا الانعكاس فى شتى هاتيك الاوضاع وعلى تصاريف تلك الاحوال.

لقد كان ابن الهيثم أول من وضع أسس التجارب العلمية المعملية التى نطلق عليها « اكسبرمنت » ويسميها هو « الاعتبار » .

وفى الانعطاف اتخذ جهازا سماه آلة الانعطاف ، لا أتردد أيضا فى أن أقول انه كان يتركب تركيبا يختلف اختلافا عظيما عن الجهاز الذى ذكره بطليموس فى كتابه المناظر ، وقد جعله ابن الهيثم بأبعاد ومقاييس وتدريجات ، وجعله ذا أجزاء مختلفة بحيث كان كفيلا بدراسة الانعطاف بالاعتبار بالأضواء الذاتية وبالأضواء العرضية ، وتناولت اعتباراته انعطاف الضوء من الهواء فى الماء ، ومن الماء فى الهواء ، ومن الهواء فى الزجاج ، ومن الزجاج فى الهواء ، ومن الماء فى الزجاج ، ومن الزجاج فى الماء ، ولم تقتصر بحوثه على الانعطاف عند السطوح المستوية بل تناولت أيضا الانعطاف عند السطوح الكرية ، وعند السطوح الاسطوانية المحدبة منها والمقعرة ، ولم تكن اعتبارات ابن الهيثم منصبة على الناحية الوضعية من الانعطاف بل شملت أيضا الناحية الكمية واستقرأ منها احكاما كمية فى الانعطاف .

فاذا انتقلنا الآن الى بحوث ديكارت فى انعكاس الضوء وانكساره تبين لنا بوضوح مقدار ما يدين به لابن الهيثم ، وليس هناك مجال للشك فى أن ديكارت قد تأثر بابن الهيثم بطريق مباشر أو غير مباشر ، ولا غرابة فى ذلك ، فقد ترجم كتاب « المناظر » لابن الهيثم الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وسرعان ما تغلغل أثره فى تفكير كثير من علماء أوربا ، وكان رجال جامعة اكسفورد فى القرن الثالث عشر يرون فى ذلك الكتاب مثلا أعلى يحتذى به لطريقة البحث فى علم الطبيعة عارضوا بها طريقة أرسطو ، والذى اجتذبهم فى طريقة ابن الهيثم هو بالذات أسلوبه فى تطبيق الرياضيات على المسائل الطبيعية ، لم يتأثروا كثيرا بطريقة نصير الدين الطوسى الهندسية فى دراسة ماهية الشعاع الضوئى لأنها كانت منبثقة من منهج اقليدس الوضعى الذى يفترض خروج الشعاع من العين للمبصر على غرار قرون الاستشعار فى الحشرات ، لأن ابن الهيثم هدمها وبرهن على أن الضوء انما يصدر من المبصر الى العين على السموت المستقيمة ، والضوء له دفع وله حركة فى زمان كما هو معروف فى النظريات الحديثة .

عرض ديكارت قانون انكسار الضوء فى كتابه « فى الانكسار » على أنه نتيجة مستنبطة من بعض الفروض ، لا على أنه نتيجة وصل اليها بالاستقراء التجريبى ، والطريقة التى اتبعها فى الاستنباط هى عين طريقة ابن الهيثم فى التحليل والتركيب ، وديكارت مثل ابن الهيثم يطبق هذه الطريقة أولا على الانعكاس قبل تطبيقها على الانكسار .

وليس هناك خلاف بين معالجة كل منهما للانعكاس ، سوى أن ابن الهيثم يفترض انعكاس المركبة العمودية ، ويستنتج من ذلك مساواة سرعة الضوء بعد الانعكاس لسرعته قبله ، فى حين أن ديكارت على الضد من ذلك يفترض هذه المساواة افتراضا ويجعل انعكاس المركبة العمودية نتيجة لا فرضا ، وليس لهذا الخلاف أهمية من الوجهة الرياضية . فالبرهانان متكافئان ، وان كانت فروض ديكارت تنطوى على اعتبارات فيزيقية من شأنها أن

تعرض نظريته لاعتراضات لا يمكن دفعها ، وهذه الاعتراضات التى نبه اليها الرياضي المعاصر لديكارت وهو العلم الفرنسى «فرما» لاترد على فروض ابن الهيثم

لقد جاء ديكارت بثورة فى علم الطبيعة بالنسبة لمفاهيم عصره ، وهو يغالط نفسه اذ يحسبها من نسيجه وحده فى غيبة من بحوث ابن الهيثم التى سبقته لانها لم تكن منتشرة بشروحها المستحدثة فى محيط ديكارت العلمي الذى هو هجين بين الفلسفة والرياضيات ، وكان يرمى من ذلك الى احالة العلم الطبيعي باسره علما هندسيا لا أثر فيه للميتافيزيقا ، ولا أثر فيه للصور الجوهرية أو الكيفيات الخفية التى قال بها الفلاسفة المدرسيون فى العصر الوسيط، أراد ديكارت وهو صاحب مبدأ الشك أن يقصى من مفهوم المادة كل صـــفة لا يمكن ردهـا الى الصفات الهندسية أو الميكانيكية البينة كالشـكل والمقـدار والحركة ، ولا يمكن من وجهة النظر هذه أن يؤثر جسم فى آخر عن طريق التصادم بينهما ٠

هذه هى نفس الاعتبـــارات الفلسـفية للعلماء الاسلاميين أمثال ابن سينا وأبى البركات بن هبة الله ملكا ، صاغها ديكارت بأسلوب عصره ، وبخلفيات هؤلاء العلماء العرب ٠

طبق ديكارت طريقـة التحليـل والتركيب على الانكسـار ، وهو فى هذه الحـالة يضع فرضين ، الفرض الأول هو أن المركبة الموازية للسطح الفاصل بين المشفين تبقى على حالها (أى لا تزيد ولا تنقص) بعد الانكسار ، وهو فى ذلك قد خالف ابن الهيثم الذى قال عن هذه المركبة ان مقدارها يزيد اذا كان المشف الثانى ألطف ، أو ينقص هذا المقدار ان كان المشف الثانى أغلظ ، والفرض الثانى الذى يضعه ديكارت هو أن هناك نسبة ثابتة بين سرعة الضوء فى المشف الذى فيه الشعاع المنكسر وسرعته فى المشف الذى فيه الشعاع الساقط ٠

هذا الفرض الثانى ينطوى على الفكرة القائلة بأن سرعة الضوء خاصة للوسط الذى يكون فيه ، وهى فكرة عبر عنهـا ديكارت فى كتاباته الخاصة التى دونها بين سنة ١٦١٩ وسنة ١٦٢١ ، أى قبل ظهور كتابه فى البصريات بنحو ستة عشر عاما ، وقد قال بعض الباحثين فى بصريات ديكارت ان الوقوع على هذه الفكرة كان علامة من علامات العبقرية ، غافلين عن بحوث ابن الهيثم التى أهملوها عمدا لحاجة فى نفس يعقوب ، حتى هيأ الله لابن الهيثم عالما مصريا فذا هو الاستاذ مصطفى نظيف الحائز لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم ، نشر هذه البحوث فى مجلدين كبيرين ، ونقتطف من كتاب « المناظر » لابن الهيثم من تأليفه ما يلى :

« والأضـواء تمتد فى الأجســام المشفة بحركة سريعة تخفى عن الحس لسرعتهـــا ، ومع ذلك فان حركتها فى الأجسام اللطيفة أعنى الشديدة الشفيف أسرع من حركتها فى الأجسام الغليظة أعنى الأضعف شفيفا ، وذلك أن كل جسم مشف اذا نفذ فيه الضوء ، فان الجسم المشف يمـانع الضـوء ممانعة بحسب ما فيـه من الغلظ ، لأن كل جسم طبيعى لا بد أن يكون فيه غلظ ما » ٠

وواضح من هذا النص أن سرعة الضـــوء تكون بحسب الممانعة التى يصادفها فى الوسط المشف الذى يسير فيه ، وهذه الممانعة تكون بحسب ما فى المشفى من غلظ ٠

قرن ديكارت هذه الفكرة بالفرض الخاص بثبات السرعة الموازية ، فأعطاه ذلك قانون انكسار الضوء فى صورته الآتية :

$$\frac{\text{جاس}}{\text{جاك}} = \frac{\text{ع ك}}{\text{ع س}} = \text{ث}$$

حيث س = زاوية الســـقوط ، ك = زاوية الانكسار ، ع س = سرعة الشعاع الساقط ، ع ك = سرعة الشعاع المنكسر ، ث = مقدارا ثابتا ، والقانون فى هذه الصورة يلزم عنه أن تكون سرعة الضوء فى المشف الأغلظ أكبر من سرعته فى المشف الألطف ، وهـذا عكس الرأى الذى ذهب اليـه ابن الهيثم ، بل قد اعترض عليه علمـاء الطبيعة أمثـال هيجنز صاحب النظرية الموجبة ، و «فرما» صاحب نظرية أقصر الأوقات، ونيوتن صاحب نظرية الجسيمات فى الضوء المنقولة من ابن الهيثم ، ويقصر المجال عن شروحها جميعا فى هذا المقال ٠

ان مخطوطات ابن الهيثم وتراجمها اللاتينية كانت باحدى الأديرة بقرب باريس وكان يتردد عليهـــا ديكارت باحثا منقبا ، حتى هيأت له الظروف ابراز دراساته فى علم الضوء ، وكل ينابيعها مستمدة من ابن الهيثم ، وكان مستواها يعلو عن مستوى عصره ولهذا بهرت أقرانه من علماء عصر النهضة ، وهم اما غافلون أو مخـادعون لأنفســهم عن التراث العلمى العربى ٠

احمد سعيد الدمرداش

معالم في الطريق

تأليف سيد قطب

بقلم: محمد عبد الله السمان

ان البشرية اليوم تقف على حافة الهاوية ـ لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها ـ ولكن بسبب افلاسها في عالم القيم ، وازاء هذا يتحتم على الاسلام أن يؤدي دوره في قيادة البشرية ، لأنه وحده هو الذي يملك القيم والمنهج الذي يضبط سلوكها ، ويوجه غاياتها الى انقاذ هذه البشرية .

وهذه هي الفكرة الأساسية التي يقوم عليها كتاب الأستاذ سيد قطب الجديد : «معالم في الطريق»

اما هذه المعالم فيجب أن تقام من المصدر الأول للعقيدة الاسلامية .. « القرآن » ، ومن توجيهاته الأساسية ، ومن التصور الذي أنشأه في نفوس الصفوة المختارة .. « الصحابة » ، التي صنع الله بها في الأرض ما شاء أن يصنع ، والتي حولت خط سير التاريخ مرة الى حيث شاء الله أن يسير .

المؤلف يعرض هذه المعالم ، فيشير الى أن هنالك ظاهرة تاريخية ، يجب أن نقف أمامها طويلا ، لانها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة الاسلامية واتجاهها . اما هذه الظاهرة ، فهي أن الدعوة قد أخرجت جيلا مميزا في تاريخ الاسلام كله ، وفي تاريخ البشرية جميعه ، ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى ، ذلك لأن النبع الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن وحده ، فما كان حديث رسول الله وهديه الا أثرا من آثار ذلك النبع ، ثم حدث أن اختلطت

الينابيع ، فصبت في النبع الذي استقت منه الأجيال التالية ، فلسفة الاغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس وتصوراتهم ، واسرائيليات اليهود ، ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات ، واختلط هذا كله بتفسير القرآن ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه والأصول معا ، وتخرجت على ذلك النبع المشوب سائر الأجيال بعد ذلك الجيل .. فلم يتكرر ذلك الجيل أبدا .

ويشير المؤلف الى عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع ، ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد ، انهم في الجيل الأول ، لم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع ، انما كانوا يتلقون القرآن ليتلقوا أمر الله في خاصة شانهم وشان الجماعة التي يعيشون فيها ، ليعملوا به فور سماعه ، فمنهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول ، ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرج الأجيال التي تليه ، كما يشير المؤلف الى عامل ثالث ، هو أن الجيل الأول دخل في الاسلام وقد خلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية ، وعاش في عزلة شعورية كاملة بين ماضيه في جاهليته وحاضره في اسلامه ، أما الأجيال التي تليه فلم يقدر لها أن تتخلص نهائيا من ضغط المجتمع الجاهلي والتصورات الجاهلية والقيادة الجاهلية في خاصة نفوسهم .

وعندما تعرض المؤلف الى طبيعة المنهج القرآني ، اشار الى أن القرآن ظل طوال الفترة المكية ـ ثلاثة عشر عاما ـ يعالج فحسب القضية الأولى ، والقضية الكبرى والقضية الأساسية في الدين الجديد ، قضية العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسية : الألوهية والعبودية ومابينهما من علاقة ، وكان القرآن ـ وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة ـ يخوض بها معركة ضخمة مع الجاهلية ورواسبها ، فظهر بناء العقيدة ، لا في صورة نظرية ، ولا في صورة لاهوت ، ولا في صورة جدل كلامي ، ولكن في صورة تجمع عضوي حيوي ، وتكوين تنظيمي مباشر للحياة ، كان هذا القرآن المكي يفسر للانسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله ، وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود الانسان ، وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده على توالي الأزمان . ان طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا المنهج ، فهو دين يقوم كله على قاعدة الألوهية الواحدة .. كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الأصل الكبير ، وهذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ، يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ، ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمولها واستغراقها لشعاب النفس كلها ، ضرورة من ضرورات النشأة الصحيحة ، وضمانا من ضمانات الاحتمال ، والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء ، والضارب من جذورها في الأعماق .

وهناك جانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى فى هذا المنهج القويم ، فالاسلام منهج عملى حركى جاد، جاء ليحكم الحياة فى واقعها ، ويواجه هذا الواقع ليقضى فيه بأمره ، يقره او يعدله أو يغيره من أساسه، فهو ليس نظرية تتعامل مع الفروض ، ولكنه منهج يتعامل مع الواقع ، والذين يريدون من الاسلام اليوم أن يصوغ نظريات ، وأن يصوغ قوالب نظام ، وأن يصوغ تشريعات للحياة — بينما ليس على وجه الارض مجتمع قد قرر فعلا شريعة الله وحدها — هؤلاء لا يدركون طبيعة هذا الدين ، ولذلك يريدون منه أن يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ، ويحاولون أن يستعجلوه عن طريقه وخطواته ، ليلبى رغبات فى نفوسهم انما تنشئها الهزيمة الداخلية فى أرواحهم .

وعندما أشار المؤلف الى أن « لا اله الا الله » منهج حياة ، ذكر أن العبودية لله وحده هى شطر الركن الاول فى العقيدة الاسلامية المتمثل فى شهادة : أن لا اله الا الله ، والتلقى عن رسول الله فى كيفية هذه العبودية — هو شطرها الثانى المتمثل فى شهادة أن محمدا رسول الله ، والقلب المؤمن المسلم هو الذى تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لأن كل ما بعدها من مقومات الايمان وأركان الاسلام انما هو مقتضى لهما ، والمجتمع المسلم كذلك هو الذى تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعا ، ومن ثم تصبح شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . قاعدة لنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، وهذا التقرير الموجز المطلق الحاسم ، يفيدنا فى تحديد كلمة الفصل فى قضايا اساسية بالغة الخطورة ، لأنها أساسية فى حقيقة هذا الدين ، يفيدنا فى تحديد طبيعة المجتمع المسلم ومنهج نشأة المجتمع المسلم، ومنهج الاسلام فى مواجهة المجتمعات الجاهلية ، ثم منهج الاسلام فى مواجهة واقع الحياة البشرية .

واخيرا — جعل المؤلف من قصة أصحاب الأخدود، الطريق الوحيد الى بعث اسلامى ، والمنهج السليم لصياغة امة اسلامية ، فقد ارتفع الايمان بقلوب أصحاب الأخدود على الفتنة ، وانتصر فى قلوبهم الايمان على الحياة ، فلم تفتن عن دينها وهى تحرق بالنار حتى تموت ، لأن قلوبها تحررت من عبوديتها للحياة ، فلم يستذلها حب البقاء وهى تعاين الموت بهذه الطريقة البشعة ، وانطلقت من قيود الارض وجوانبها جميعا ، وارتفعت على ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

وبعد ، فمما لا ريب فيه أن كتاب الأستاذ سيد قطب وثبة جريئة فى التفكير ، تؤكد أنه لا بد من بعث اسلامى جديد ، اذا أريد انقاذ البشرية من شقوة الجاهلية ، ولا بد لهذا البعث من معالم فى الطريق تلقى أضواء على دوره ومهمته وغايته ، ونقط البدء فيه ، ولا بد لهذه المعالم أن تقام من المصدر الاول للعقيدة ، وهو القرآن : من توجيهاته الأساسية ، ومن التصور الذى أنشأه فى نفوس الصفوة المختارة التى صنع الله بها فى الأرض معجزة التاريخ .

الا ان فى الكتاب وقفات يسيرة :

فاعتبار المؤلف أن القرآن المكى خلال الثلاث عشرة سنة خدم قضية العقيدة وحدها ، قول فيه نظر ؛ فالمعروف أن الطابع الذى تفوق فى هذه الفترة المكية هو طابع العقيدة فى العرض القرآنى ، والى جانب التفوق فى جانب العقيدة ، اهتم القرآن أيضا بالسلوك والأخلاق وقصص السابقين لاقتباس العظة والعبرة منها لا فى مجال العقيدة وحدها ، بل فى مجال السلوك أيضا ؛ فسورة يوسف مثلا وهى مكية — باستثناء اربع آيات — لا تكاد تتعدى الآيات التى تتصل بالعقيدة بضع آيات .

ولسنا مع المؤلف : فى أن الاسلام يرفض اية حضارة الا اذا كان مصدرها الاسلام ، لأن الحضارة فى كل زمان ومكان قيمة مشتركة بين الناس جميعا ، ومجهود بشرى لا يختص بجنس دون جنس ، وحتى فى الصدر الأول للاسلام ، اقتبست بعض الأنظمة الرومانية والفارسية فى مجالى السياسة والحكم وغيرهما ، وكل ما يفعله الاسلام ازاء الحضارة — اية حضارة — أن يوجه سلوكها وغاياتها .

والمؤلف يدرك بالطبع أن الاسلام قد مر بتجربة القيادة ، وتسبب المجتمع المسلم فى فشلها أكثر من مرة ، فاذا أراده على أن يدخل تجربة جديدة ، فلابد من تسليط الأضواء أولا على أسباب الفشل ، لتبدأ معالم الطريق ، وهذا ما لم يكن واضحا ملموسا فى منهج الكتاب .

ومثل هذه الوقفات اليسيرة لا ينقص قدر الكتاب فى مجال الفكر الحر الجرىء ، وفى مجال التفكير المنطقى السليم ..

محمد عبد الله السمان

كتب جديدة

يقدمها : تحسين عبد الحي

فضل العرب على اوربا
تاليف : الدكتورة سيجريد هونكه

ترجمة : الدكتور فؤاد حسنين على

قد آمن العرب سواء فى الجاهلية أو الاسلام بالحقوق الانسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشرى .. فمن خلال مبادئهم الانسانية وتسامحهم وعدم تمكينهم للون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتمييز العنصرى استطاعوا أن يجعلوا من مشرقنا العربى مركزا للاحداث التاريخية العالمية التى غيرت وجه الوجود ، فنقلته من البدائية الى الانسانية ومن الانانية الى الايثار . ومؤلفة هذا الكتاب الدكتورة (سيجريد هونكه) الالمانية الاصل من أولئك الذين يؤمنون بأن البحث العلمى يجب الا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة ــ كما لا يتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادى الرخيص ــ فمن خلال هذا الايمان استطاعت أن تقدم لنا معالجة قيمة لمختلف نواحى النشاط العقلى العربى وأثر هذا النشاط فى التقدم الانسانى العام . مدعمة ذلك بكثير من الصور واللوحات النادرة . وقد أشادت المؤلفة بفضل العرب ونبوغهم فى جميع المجالات العلمية والعمرانية ، فمن علوم الفلك والرياضيات والطب الى كل ما يمكن أن نتصوره حاليا فى القرن العشرين فى مجال الخدمات العامة .

فقد انتشرت المستشفيات فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ــ قبل الف عام من الهيمالايا الى البرنات . ففى قرطبة نجد فى منتصف القرن العاشر خمسين مستشفى ، أكثر من هذا العدد بكثير كانت تضمه بغداد والقاهرة ودمشق وجميع الحواضر الاسلامية .

وقد اهتم العرب بالكتب فأنشأوا لها المكتبات العامة .. وزودوها بوسائل الراحة ــ ففى بغداد وحدها كانت هناك مائة مكتبة عامة لكى يستعين بها كل طالب علم سواء أكان مستعيرا أم قارئا ومدينة صغيرة مثل النجف كانت فى القرن العاشر الميلادى فخورة بامتلاكها أربعين الف مجلد . وقد تحدثت المؤلفة فى موضوع الانتماء الجنسى لعلماء مثل الخوارزمى وابن سينا وغيرهم ــ وأوردت مقارنة طريفة .. فقالت ان الرئيس السابق ايزنهاور أصله المانى . وهو الآن امريكى .. فهل يمكننا القول أنه المانى فقط ونركز على ذلك ..مثل تركيزنا عن علماء العرب الرواد فنقول ان هذا فارسى وهذامصرى الخ .

ويقع الكتاب فى ٤٨٩ صفحة من القطع الكبير ونشرته دار النهضة العربية .

فلسفة المجتمع العربى
تاليف : عبد المجيد عبد الرحيم

لقد أدت المتناقضات التى زرعتها الامبريالية الغربية فى الشرق ، وافلاس الحضارة الاوربية فى نظر الشرقيين ، لعجزها عن تحقيق مبادىء وقيم انسانية كالتى أوجدتها الحضارة الشرقية منذ آلاف السنين وبسبب حروبها الكبيرة والصغيرة الدائمة والصراع بين المذاهب والآراء المتعارضة ، أدت كلها الى وجود أزمة عقلية فى الشرق عامة والعالم العربى خاصة . وفى هذا الكتاب محاولة للكشف عن المثل العليا والمبادىء الفعالة فى ضمير المجتمع العربى . لان المجتمع العربى كما يقول المؤلف : يتطلب فلسفة جديدة تقدم نظرة شاملة كلية عن ثقافة هذا المجتمع وحضارته وامكانياته ، وتستعين بالآراء السياسية فى الحكم والاقتصاد لتكوين هذه الفلسفة العربية الجديدة . وقد شرح المؤلف أسباب تخلف العرب داخليا وخارجيا مع تحديد للاسس الفلسفية للمجتمع العربى فى حدود القدرات الروحية والمادية للعرب وذلك من خلال دراسته لمشكلة السكان وعوامل الانتاج وارتباط ذلك بالثورات التحررية التى قامت فى أنحاء الوطن العربى .

ويقع الكتاب فى ١٨٩ صفحة من القطع الكبير ونشرته مكتبة النهضة المصرية .

ابن المعتز العباسى
تاليف : الدكتور احمد كمال زكى

يقول المؤلف : لم يحاول ابن المعتز ان ينكر فى كل كتبه وكل رسائله أنه كان انسانا مغامرا، بل على العكس يبدو كما لو كان فخورا بهذه الصفة ، ويمكن أن نقول بعد ذلك ان القاعدة التى اتخذها ابن المعتز أساسا للحياة الاجتماعية هى : عش ودع غيرك يعيش ! وكتاب ابن المعتز يقع فى ثلاثة ابواب وكل باب يرصد لفترة من فترات التاريخ يمكن أن تكون محاولة جادة لدراسة مجتمع العصر من مختلف نواحيه وفى شتى تركيباته •

فالباب الأول يستغرق حياة ابن المعتز اللاهية الى أن اكتمل شبابه ، والباب الثانى يتعرض لحياته وهو رجل يشتغل بالعلم والسياسة ويفكر فى عرش أبيه الذى انتزع منه ذات ليلة مشئومة من ليالى المغامرات، والباب الثالث يقف عند مؤامراته على المقتدر ـ وكان فى الثالثة عشرة من عمره ـ بعد أن اقتنع بأن الخلافة لا يمكن أن تكون لصبى لا يعرف كيف يقابل تصادم القوى •

وقد عاش ابن المعتز شباب لاه ثم رجولة لها طابعها الذى فرضته ظروفه الصحية والفكرية وقواه البدنية وأخيرا شيخوخه مبكرة لم تحسن التدبير ولا التقدير •

ويقع الكتاب فى ٢٧٣ صفحة من القطع المتوسط ونشرته الدار المصرية للتاليف والترجمة فى سلسلة أعلام العرب •

تاريخ القرآن
تاليف : ابراهيم الابيارى

يحتوى الكتاب على تلخيص لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وكما يقول المؤلف ـ تلخيصا يقف عند الاجمال الجامع ولا يعرض للتفصيل المشتت • ويعتبر فى نفس الوقت تمهيدا لتلخيص ثان ميسر مبين يجمع كل ما يتصل بالقرآن الكريم

ويبحث الكتاب فى أحوال الجزيرة العربية قبل الرسالة ويعرض لغزوات الرسول ولحياته صلى الله عليه وسلم ثم ينتقل بعد ذلك الى القرآن الكريم فى عدد الآيات وترتيبها واسماء السور ثم الحكمة فى نزول القرآن منجما ومصحف عثمان ، ورأى ابن قتيبة فى القراءات الى غير ذلك من الموضوعات الهامة•

ويقع الكتاب فى ١٦٤ صفحة من القطع المتوسط ونشرته دار القلم •

تاريخ الفلسفة الامريكية
تاليف : هربرت شنيدر

ترجمة : الدكتور محمد فتحى الشنيطى ••

لقد اعتاد الامريكيون أن يفكروا فى تقاليدهم الثقافية فى عبارات اقليمية ـ ذلك لان « الولايات » وان كانت قد اتحدت فى بناء سياسى اقتصادى واحد فثمة مناطق حضارية متمايزة داخل البلاد ، وكل منطقة من هذه المناطق تساهم فى تزويد التراث الامريكى « بلونها المحلى » وافكارها الخاصة •

ويقدم الكتاب دراسة للافلاطونية والتجريبية فى امريكا المستعمرة ، ولعصر الاستنارة الامريكى ثم يبحث بعد ذلك فى موضوع القومية والديمقراطية والمذاهب المثالية • وظهور النزعة الطبيعية الجديدة والنزعة الواقعية •

ويقع الكتاب فى ٤٤٤ صفحة من القطع الكبير ونشرته مكتبة النهضة المصرية •

ديوان انغام حالمة

تاليف : الشاعرة روحية القلينى
تقديم : الاميرة دينا عبد الحميد

يحتوى الديوان الذى يقع فى ١١٢ صفحة من القطع المتوسط والذى نشرته المؤسسة المصرية للتاليف والترجمة على مجموعة من القصائد الوطنية والعاطفية وصلت الى خمس وأربعين قصيدة منها قصيدة بورسعيد ، والجزائر ، وعودة الأحرار ، وساصغى لقلبى ، وكبرياء الحب ، ومن وحى مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا،ودموع الشاعرة ، وأنا والزهرة وكذلك قصيدة الأم العربية التى صورت لنا فيها الشاعرة عزم المرأة العربية ،وايمانها ، وفرحتها بحريتها الوطنية ، وتقول الأميرة دينا فى تقديم الديوان : ان شعر المرأة العربية ـ ان صحت التفرقة بين الأدب النسائى وغيره ـ قد اتسم دائما بالصدق، والايمان والحس المرهف ، وهذا كله نشعر به بصفة خاصة فى شعر « روحية القلينى » الوطنى منه والعاطفى •

وأبيات روحية القلينى عندما تغنى لنا انما تغنى بقوة العاطفة ، وروح الصدق والبساطة ، وبذلك تحول أحاسيس شعرت بها كل امرأة الى تجربة انسانية عالية •

تحسين عبد الحى

قراءات فى المجلات العربية

يقدمه : محمد العوانى



• الحاضر والمستقبل :

طالعتنا مجلة الثقافة فى العدد التاسع والسبعين بمقالة للاستاذ **محمد فريد أبو حديد** بعنوان «حاضرنا ومستقبلنا» ، وقد مهد الاستاذ فريد مقاله بمقدمة بين فيها أن هناك مظاهر عابرة فى حياتنا الانسانية يخيل الينا أنها هى الحقيقة الكاملة ، وقد رد على من يقولون بحتمية التطور من تلقاء نفسه بمرور الزمن ، مبينا أنهم يغفلون أثر العوامل الحقيقية التى تعمل على التطور ، وتتلخص هذه العوامل فى « توافر الطاقة البشرية التى تحرك المادة وتجعلها تتطور من حالة احتمالية الى حالة فعلية » .

والزمن وان كان لازما للتطور الذى تحدثه هذه الطاقة البشرية ، فهو فى رأى الأستاذ فريد ليس الا عاملا واحدا « وقد يكون عاما واحدا أو عشرة أعوام وقد يكون قرنا أو عدة قرون » تبعا لتلك الطاقة البشرية المتماسكة .

ومن هنا كان التقهقر والتوقف الذى أصاب بناءنا الحضارى الماضى يرجع سببه الى « اختلاف الآراء والمذاهب فى المجموعة التى تمثل القوة البشرية الدافعة فى الأمة العربية » .

ويمضى الأستاذ فريد مبينا أن سر وجود هذه الاتجاهات المعرقلة للتقدم ، هو هذه « الانانية » التى استولت على قادة الآراء وزعماء المذاهب الفكرية فى الأمة العربية ، وقد تعدى ضرر هذا من الاضطرابات الدموية والتطاحن بين أبناء الأمة العربية الواحدة الى الناحية الثقافية ، فقد أدى ذلك الى تشتت أصحاب هذه الآراء والمذاهب الى فرق ثقافية صارت داء وبيلا أنهك قوى الامة وجعل حركتها الحضارية تضعف ويتحدد مداها .

واذن فهذه الآثار السيئة التى أصابت الثقافة كانت نتيجة للأنانية والكبرياء فى أصحاب هذه المذاهب والآراء وهم من عناصر شتى جمعتها وحدة سياسية هى قوة الدولة العربية الماضية وحدها على الرغم من أن هذه العناصر كان « بعضها عربى الاصل والثقافة ، وبعضها فارسى الاصل والثقافة ، وبعضها من أصول لاتقع تحت حصر سريع » .

وبالنسبة لوقتنا الحاضر فان الأمر يختلف عما كان عليه من قبل ، اذ أن قادة الرأى عندنا الآن ليسوا من عناصر شتى ، بل انهم من أبناء العربية التى صارت تصدر بعد أن توحدت ثقافتها وامتزجت ـ عن منبع واحد هو هذه « الثقافة العربية الموحدة » .

ومن أجل هذا فان الواجب على قادة الفكر وأصحاب الآراء المختلفة « أن يكون رائدهم مصلحة هذه الأمة العربية الجديدة ، وابعاد عوامل الأنانية والكبرياء التى تتجه بغير وعى الى التباعد والتفرق » .

***

ثم ينتقل موضحا أن على المفكر حين يعرض آراءه أن يسائل نفسه « هل يصح لى أن أتمسك بآرائى لأنى أعرف حقا أنها الصالحة التى أحب للمجتمع أن

يقبلها ؟ أم هي آراء خاصة بميولى وانى أريد اقحامها على المجتمع بدافع من أنانيتي وكبريائي » .

وما دامت مصلحة المجتمع هي مصلحة الجميع وخيره هو خير الجميع فان الواجب على كل ذي رأي أن يكون « جنديا في الصراع الفكرى الحر الذي يريد اظهار الحقيقة في مصلحة المجتمع » .

ويضع الأستاذ فريد قاعدة عامة يمكن أن تعتمد عليها تلك هي ، أن ترتكز على الخير والجمال ، فاذا عرض رأى من الآراء امكن فحصه على ضوء ماينتج عنه من الخير ، وما يتميز به من معنى الجمال ، فاذا خلت الفكرة من الخير كانت ظاهرة التزييف ، ومن الممكن لكل مفكر آخر ان يظهر بطلانها وتزييفها وبعدها عن الحقيقة التي تحرص عليها الانسانية دائما في كل عصر وفي كل مجتمع .

العروبة عند ابن تيمية

في مجلة الاقلام العراقية بحث بهذا العنوان كتبه « جمال الدين الألوسي » ، وقد عرف الكاتب في مقدمة هذا البحث بابن تيمية فبين أنه ولد في العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١ بحران أيام غزو التتر ، وأنه ترعرع ودرس العلوم الاسلامية والعربية في دمشق ويخلص بعد التعريف بابن تيمية الى الحديث عن رأيه في العروبة فيقول انها كما تطلق على العرب جنسا ، تطلق على لغة العرب لسانا ، ويقول ان العرب خصهم الله سبحانه وتعالى وخص لسانهم بأحكام تميزوا بها فجنسهم أفضل الاجناس ولهذا كان لن لم يعتقد بان جنس العرب افضل من سائر الاجناس فهو شعوبي ، والشعوبية وهم أراذل الناس قد ابتدعوا في الدين وخرجوا عن جماعة المسلمين .

ويشرح الباحث ان سبب فضل العرب عند ابن تيمية ليس لما ورد فيهم من نصوص القرآن والحديث فقط أو لما خصوا به من أحكام الفقه بل هم افضل كذلك لما اختصوا به فطرة ومعدنا في عقولهم والسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم .

ثم يبين أن ابن تيمية يكره للرجل المقيم في أرض عربية أن يتعود النطق بغير العربية وهو قادر على التكلم بها ، لأن اللسان العربي هو شعار الاسلام . كما بين أن العروبة عنده أيضا تكتسب بـ (اللغة) وبـ (الوطن) وبـ (النسب) فمن تكلم العربية فهو عربي ومن انتسب لأب عربي فهو عربي ومن سكن أرض العرب فهو عربي ولما جاء الاسلام وفتح العرب الدنيا وانتشروا فيها ، سكنوا سائر البلاد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب وغلب على أهلها لسان العرب حتى لا تعرف غيرهم فهذه البقاع يعتبر ابن تيمية أهلها ، بين عربي ابتداء أو عربي انتقالا اى بين عربي أصيل وعربي مستعرب » .

السياب الشاعر العراقي

مات منذ أيام الشاعر العراقي بدر شاكر السياب بعد ان أصيب بمرض وهو في قمة شبابه لم يفلح الطب في شفائه ، وقد تناول هذا الشاعر أكثر من كاتب تحدثوا في دراسة مستفيضة عن حياته واعماله الادبية ويصفه الدكتور يوسف ادريس بقوله انه كان شابا خجولا كثير الابتسام قليل الكلام نحيلا رفيعا شاعرا موهوبا كما يعتبره واحدا من مؤسسى مدرسة الشعر الجديد .

وتحدث عنه رجاء النقاش في جريدة الجمهورية الصادرة في ٧ يناير ١٩٦٥ مبينا أن السياب حين بدأ حياته الفنية سنة ١٩٤٨ كان شاعر رومانسيا وظهر أثر هذا الاتجاه في ديواني (أساطير)و(ازهار ذابلة) ثم يوضح أن المعاهدة التي أرادت حكومة صالح جبر في العراق أن تفرضها على الشعب قد أتاحت للشاعر أن يشترك مع الشعب في تحطيمها كما اشترك في المظاهرات والمؤتمرات الشعبية ، ويرى الاستاذ رجاء أن هذه الفترة هي التي بدأ يتفتح فيها وعى الشاعر « على شيء جديد في داخله » ، حتى استطاع أن يتخلص من سطوة الاحساس عليه .

ويعقد الاستاذ رجاء مقارنة بين السياب والشاعر الانجليزى ت . س . اليوت فيذكر أوجه الشبه بين كل منهما .

على أنه يشرح في مقاله الاسباب التي جعلت السياب يتردد بين بعض المذاهب فهو قد أقبل على المذاهب السياسية بنهم ، فقرأ الماركسية وارتبط بالماركسيين عدة سنوات ثم انفصل عنها انفصالا معنويا ،كما ارتبط الى أقصى حد بالاتجاهات السياسية التي تؤمن بالوحدة العربية والقومية العربية . ومما يذكر أن للشاعر الراحل عدة دواوين منها « انشودة المطر » «ومنزل الأقنان » و « المعبد الغريق» وقد كان في الآونة الاخيرة يعد ديوانه الاخير « شناشيل ابنة الشلبى » للطبع .

محمد العواني



الثمن

بقلم : أمين يوسف غراب

فى يوم الاثنين قبل الماضى نشر الناقد الكبير الدكتور « محمد مندور » مقالا فى مجلة روز اليوسف قال فيه عن زميله لويس عوض أنه من كبار مثقفينا . وقال فيه عن أبى العلاء المعرى — انه من الثابت أن أبا العلاء المعرى لم يكن ثابتا على دينه الاسلامى متمسكا به . بل لقد اتهم اتهاما أكيدا بالالحاد والزندقة .

كان هذا فى يوم الاثنين . وفى يوم الجمعة نشرت صحيفة لويس عوض فى جريدة الاهرام قصيدة — عصماء — للسيدة الجليلة الشاعرة ملك عبد العزيز زوجة الناقد الكبير الدكتور محمد مندور .

كان هذا فى يوم الجمعة . وفى يوم الاحد ذهب الدكتور محمد مندور الى جريدة الاهرام وليس الى صحيفة لويس عوض وقبض الثمن .

مسكين شيخ « المعرة »

توضيح للدكتور فؤاد حسنين على

قرأت فى تعقيبات الاستاذ عباس خضر (العدد ٧٩ من الرسالة) على عبارتى الواردة فى مقالى نشيد الاناشيد (العدد ٧٧ من الرسالة) وهى :

« ويفيدنا نشيد الاناشيد أيضا فى الفصل فى هذه الاحكام التى تلقى جزافا حول شعرنا جاهليا كان أو اسلاميا فالمؤرخون يقررون فى شىء من الجراة أن امرا القيس مثلا أول من وقف على الاطلال وبكى واستبكى » .

ما يأتى :

« كنت أود — وما زلت — أن يذكر لنا الدكتور من من المؤرخين قرر هذه الاولية لامرىء القيس ؟ »

واستجابة لرغبته احيله الى « تاريخ الادب العربى » تأليف أحمد حسن الزيات . الطبعة الثالثة والعشرون ص ٤٨ حيث جاء :

« نشأ امرؤ القيس .. فقالوا انه أول من وقف على الاطلال وبكى على الديار وشبب بالنساء » .

بدعة الاربعين ..

بقلم عيسى متولى

دعيت والدتى ، طيب الله مثواها ، الى أكرم جوار منذ أسابيع قريبة ...

وبعد وفاتها بشهر ، اجتمع الأهل ، لتحديد يوم « الاربعين » ...

فسألتهم : وهل « الاربعين » فرض .. أم سنة ؟!

لقد حفظت كتاب الله كله ، فلم أجد فيه لهذه البدعة ذكرا ...

وقرأت أحاديث الرسول الحبيب ، فما وجدت فى حديث منها تصريحا .. ولا تلميحا ..

وأنا لا أعترف بشىء خلا منه كتاب الله .. وسنة رسوله ..

ولما سقط فى أيديهم ، قال قائل منهم انه مجرد « تقليد » متبع ، لا بد من احترامه ...

قلت : بل هى بدعة ، توارثناها عن الفراعنة الأقدمين ، جيلا بعد جيل ، ما أنزل الله بها من سلطان !.

أنترك الفرائض والسنن ٠٠ ونتبع الضـلالات والبدع ؟!

والرسول الأمين يقول: « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » ٠

وأكدت لقومى أننى اذ أخالفهم الرأى لا أخالفهم اياه عن تقصير نحو ذكرى أحب انسان الى ٠٠ ستبقى ذكراه بين ضلوعى ما حييت ٠٠ بل اتباعا للدين القويم ، الذى أنعم الله به علينا ، لينأى بنا عن البدع والضلالات ٠٠ ويخرجنا من الظلمات الى النور ٠٠٠

قد يترك الميت ذرية ضعافا ، هم أحوج مايكونون الى ما ينفق فى المآتم ، وما تتطلبه من مظاهر ، ومع ذلك تراهم يحرصون على اتباع هذه البدع ٠٠ فلا بد من اقامة السرادقات ، والولائم ، وعلى راس ولائم « الاربعين » صحون « لقمة القاضى » !٠

وهؤلاء الايتـام ، سرعان ما ينفض عنهم العم والخال ، ويسوء المآل !٠

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ؟!٠

مالهم لا يرعون حق اليتيم ٠٠ بدلا من هـذه المظاهر الكاذبة ؟!٠

واذا كان هناك فضـل من مال ٠٠ فلم لا يوجه للصدقات ٠٠ فهذا خير وأبقى !٠

لقد أوصانا الله بالوالدين احسانا فى حياتهما ٠٠ حتى اذا ما دعاهمـا الى جواره الـكريم ، أوصانا بخمس كلمات بينات ٠٠ تفيض رحمة ، ونورا ٠٠٠

خمس كلمات بينـات ، نرددها فى صلاتنا ، ودعائنا ٠٠

هذه الكلمات الخمس البينات هى :

« رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » ٠٠

الفرق بين زهير بن أبى سلمى والبهاء زهير

بقلم نبيل فرج

ذكر الدكتور عبد الحميد سند الجندى فى مقدمة كتابه «زهير بن أبى سلمى شاعر السلم فى الجاهلية» الذى نشرته وزارة الثقافة أنه (قد صدر فى السنوات الأخيرة كتاب صغير عن زهـير بن أبى سلمى فى سلسلة « نوابغ الفكر العربى » التى تصدرها دار المعارف ، وهو كتيب قد يجد الباحث العجل فيـه بغيته ، ولكنه لا ينقع غلة ناشدى البحث العميق) ٠

وقد بحثت عن هذا الكتاب الصغير فلم أجد له أثرا ، فعدت أستهدى آخر قائمة للمطبوعات الثقافية لدار المعارف بمصر ـ لعله لم يصل للمكتبات أو نفد منها ـ فلم أجد فى هذه السلسلة أية كتاب عن زهير أو اى شاعر جاهلى ، ما عدا الخنساء ، بل وجدت فى عدد ٢٨ كتابا عن « البهاء زهير » الذى عاصر دولة بنى أيوب وست سـنوات من دولة المماليك البحرية ٠

امر غـريب ٠ كيف يخلط أستاذ أكاديمى بين شاعر جاهلى واضـح القسمات الفنيـة والفكرية ، توفر على درسه سنوات ونال فيه درجة الماجستير فى الآداب ، وبين شاعر متأخر عاش فى أخـريات العصر العباسى ، تشيع فى أشعاره الروح المصرية والعاطفة المصرية والذوق المصرى ؟

ان الفرق بينهما فرق بين الفطرة السليمة المقتدرة بذاتها ، والصنعة الزاهية المكتسبة ٠

ولو أن الدكتور اختصر على ذكر الكتاب الذى لم يطلع عليه لهان الأمر شيئا ، فقد أورد فى آخر الكتاب مراجع لم يعد اليها ولم يفد بها ٠٠ انما أتاح لنفسه ، فوق هذا ، أن ينتقص مما زعمه ، فوصفه بأنه كتاب صغير لا ينقع غلة ناشدى البحث الخصب العميق ـ لكى يرفع من قيمة كتابه ضمنا ، ويوحى بأنه ينقع غلة أولئك الذين ينشدون البحث الخصب العميق ٠

والحق ان كتابه لا يرقى الى هـذا المستوى على الاطلاق ، ففيه من العيوب أكثر مما فيه من المزايا ٠ وفيه من السرعة أكثر مما فيه من التبصر البطىء ٠

ان من يصدر مثل هذه الأحكام فى مقدمة دراسة اكاديمية ينبغى أن تتسم بشدة التحرج والاستيثاق رجل غير أمين على الكلمة ٠ غير معذب بها ٠ لم يتشرب روح العلم ولا يحترم منهجه ٠

وطالما انه لا يزال بيننا من يستخف بالكتابة ، اعتمادا على عدم معرفة القارىء ، ويحتال على المنهج العلمى ٠٠٠ طالمـا انه لا يزال بيننـا من لا يحيل ضميره ، حين يتصدى للبحث ، الى منارة يقظى ٠٠ سـتظل دراسـتنا تعـانى من الضعف والاختلاط والقصور ، وهو ما آن لنا أن نتخلص منه ٠

صراع .. قصة مصرية

بقلم أمين يوسف غراب

قال لها هامسا . وهو يتلصص بعينيه على امها التى تقف على عتبة داره في نهاية الحارة تتحدث الى امه :

ــ تعالى نلعب ..

فلم تجب . وانما اشاحت بوجهها عنه كمن لا تريد ان تسمع ، فاقترب منها خطوة .. وشدها من ذراعها وهو يقول بصوته الهامس الذى يفيض حنانا ورجاء بود تحقيقه :

ــ تعالى نلعب ..

فالتفتت اليه غضبى، وقالت وهى تنظر الى يده الصغيرة التى ما زالت معلقة بذراعها :

ــ انا مخصماك ..

ــ من غير سبب

ــ اتهمتنى بسرقة الكرة ..

ــ انى سألتك عنها فقط .

ــ لا .. اتهمتنى بسرقتها ..

ــ حقك على .. وغدا سأجيء لك بكرة غيرها ..

ــ من اين ؟

فقال وهو ينظر الى ذراعها الصغيرة التى مازالت معلقة في يده :

ــ سمعت ابى يقول لأمى ، انه عندما يذهب الى السوق بعد غد ، فسوف يشترى له جوربا جديدا وعند ذلك سوف آخذ جوربه القديم واصنع لك منه كرة جديدة .

فقالت وهى تنظر اليه .. ونور جميل يتألق فى عينيها :

ــ سوف اصنع لك كرة من عندى .. فابى يملك اكثر من جورب .. واستطيع ان آخذ منها ما اشاء

ومع انه لم يفطن الى شىء ، الا انها تداركت سريعا جملتها الاخيرة ، وما فيها من حرج له ، لذلك عقبت ضاحكة ، وذلك النور الجميل ما زال يتألق فى عينيها :

ــ تصالحنا ..

فقال فرحا :

ــ وسنلعب ..

ــ اسبقنى وسوف الحق بك ..

ــ تعالى معى ..

ــ اعددت لك مفاجأة سارة . سأذهب لأحضرها .

فقال فى ابتهاج شديد :

ــ ما هى ؟

فنكست هدبيها الطويلين ، وهى تضحك ، وتضع أصبعها الصغير على غمازة فوق خدها المتورد ، وتقول ناظرة اليه :

ــ احزر ..

فقال مفكرا :

ــ كرة ؟

ــ لا ..

ــ تؤكل ؟

ــ لا ..

ــ تشرب ؟

ــ لا ..

ــ ما هى اذن ؟

فقالت وهى تنسرق من امامه ضاحكه .. تقفز في خطوات عالية كالغزال :

ــ اسبقنى وسأحضرها لك ..

فانصرف تغمره فرحة كبيرة .. ووقف ينتظرها

على راس الحارة حتى تجيء ، ويذهب معهـا الى الجرن يلعبان مع الصبية على ضوء القمر في رمضان الاستغماية ــ وجمال المالح ــ وحلقة ومضرب ــ الى ان تدق طبلة **عم نوفل** المسحراتى اولى دقاتها ، فينصرف كل الى بيته ، فرحا مبتهجا بما ظفر من هذه الليالى الجميلة من لعب .. ومرح .. ولهـو برىء ..

وبينما هو فى مكانه مر به عم نوفل ، تسبقه عصاه السنط الطويلة ، التى تهديه دائمـا الى الطريق ، ففزع الصبى لمرآه . والصق جسـده بالحائط فى الظلام حتى لا يشعر به ، وقد انتابته حالة شديدة من الذعر ، وحالة اخرى من الاطمئنان او الرضا لا يدرى . فهو ان ظفر به عم نوفل الليلة ، حرمه من الاستمتاع باللعب مع سلوى في الجرن ، وان لم يظفر به ، حرم الصبى نفسه من بعض الطيبات التى تعود عليه فى الليالى التى يقود فيها عم نوفل فى أزقة القرية وحاراتها ، يدق على بيوت الناس ليوقظهم للسحور والصلاة التى هى عند الله خير من النوم.

وظل الصبى فى مكانه من الحائط حائرا لم يقطع بامر . ينظر في خوف او رضا لا يعرف ، الى عصا عم نوفل الطويلة ، وهى تقترب منه ، متمنيـا من قلبه ان تخطئه ، ومتمنيا ايضا من قلبه ان تظفر به! بيد ان الأولى هى التى كان لها التفضيل في نفس الصبى ، لانه كلما راى العصا تقترب منه وخطوات عم نوفل المتعبـة تدب اليه ، أطبق على شـفتيه والصق جسده بالحائط حتى ود انه دخل فى قلبه ، ولكن عم نوفل كانت له حاسة شم قوية ، يستطيع ان يشم بها رائحة الناس ويميزهم ويتعرف عليهم، لذلك ما ان اقترب من مكان الصبى حتى حول عصاه الطويلة الى الجدار الذى يختبىء الصبى بجواره ، وقال له على الفور :

ــ امام

فاضطرب الصبى وتعالت دقات قلبه وهو يجيب سريعا :

ــ نعم ..

ــ ايـن كنت امس .. واول امس .. وكيـف تجعلنى ابحث عن غيرك ليمسك بيدى ويحمل عنى الفانوس ؟

فتلعثم الصبى وهو يقول :

ــ كنت أجود فى جزءى عم ، وتبارك .. كما قلت لى ..

ــ انت تكذب ..

فقال الصبى خائفا :

ــ اسأل امى ..

ــ أمك شقية بك .. ويلعبك طوال الليل فى الجرن

وصمت عم نوفل لحظة ، ودق بعصاه على الارض ثم قال :

ــ هل تريد ان أشكوك الى ابيك ؟

ــ لا .. لا .. انه يضربنى ..

قالها الصبى فى خوف شـديد وهو ينظـر اليه حتى لكانه يظن انه يراه .. فقال الشيخ :

ــ اذن ستسرح معى الليلة .

واراد الصبى ان ينطق .. ولكنه التفت فرأى سلوى تهل على رأس الحارة من بعيد كما يهل القمر الوليد فى الافق من بعيد فاضطرب ثانيـة وتعالت دقات قلبه، واحس بضيق شديد وقال خائفا وعيناه معلقتان فى عينى الشيخ الضرير :

سأسرح معك الليلة وكل ليلة ، فقط لاتشكونى الى ابى .

سأنتظرك في المسجد ..

نطقها الشيخ وانصرف ، تسبقه عصاه ، تبحث معـه في الظلام عن بيت الشيخ الشـافعى مأذون الشرع ليقرأ فيه بعض القرآن ، الذى تعود ان يقراه ايضا في بيوت غيره من اهل القـرية طوال شـهر رمضان ، فعم نوفل له فى القرية مكانة ملحوظة . ويقوم فيها باعباء كثيرة ، فهو رغم انه كهـل فى الستين من عمره ، ورغم ان الايام اتت على كل شىء فيه ، ولم تبق من جسده الا ما يشبه الصورة القديمة التى تآكل اطارها وتسلل البلى الى رسمها . فهـو مقوس الظهر معوج الساقين ، ومع ذلك فهـو فى القرية حركة نشاط دائمة ، لا تعرف الهدوء ولا الراحة ولا الملل . فهو فقيه المسجد الذى يؤذن فيه الناس للصلاة .. وهو حانوتى القرية الوحيد الذى يغسل الموتى ويكفنهم ويتلو على رءوسهم القرآن عندما يخرجون من الدنيا .. وهو يتلوه أيضا كل

صباح فى بيوت أهل القرية ـ بالمسانية ـ أى بالسنة ، تظير كيلة أو نصف كيلة من الحنطة أو الشعير كل عام ٠

أما اذا جاء رمضان فهو أيضا مسحراتى القرية الذى يجوبها كل ليلة بطبلته ، يدق بها على الأبواب بابا بابا ٠ ورغم أن هذا كان يجهده كثيرا ، الا أنه كان يسعده أيضا ، وهو لا يسعده وحده ، وانما يسعد معه جماعة كثيرة من الصبية والصبيات والعجائز الذين يقطنون معه دهليز « المرعشلى » ٠ وهو دهليز كبير يضم أكثر من عشرين غرفة ٠٠٠ وقفها على الفقراء الذين لا ماوى لهم من أهل القرية كما وقف جناحا من هذا الدهليز على ـ خولى ـ زراعة الوقف يقطنه هو ومن يشاء من أسرته ٠ وهو الجناح الذى يقطنه امام مع أمه وأبيه ٠

وكان سكان هذا الدهليز جميعا ، اذا جاء رمضان وطلعت عليهم بشائره فى الافق ، غمرتهم فرحة لاحد لها ، وعاشوا جميعا فى هناء زائد وسرور مقيم ٠ وذلك بسبب الصدقات الكثيرة التى كانت تنهال على عم نوفل فى رمضان ، وكان يوزعها على سكان الدهليز الذين كانت قلوبهم تكاد تطير من الفرح عندما يدخل عليهم عم نوفل بعد السحور حاملا جواله المكتظ بالخيرات ، ويفرغه أمامهم على الأرض فيلتفون حوله كالقطط الجائعة ، يستخلصون بأيديهم الصغيرة الجبن من العجوة ، ومخلل اللارنج والقثاء من البلح والجوافة ، والخبز الجاف من الكحك والمنين والغريبة وعظم الدجاج وقطع اللحم من رءوس الفجل والكرات ٠ وما الى ذلك كله من خير عميم ، يظفر الصبى منه بالنصيب الأوفر دائما ٠

فكر الصبى فى هذا كله سريعا وهو فى مكانه من الجدار يشيع الشيخ الضرير ومرت به خيالاته مرورا سريعا كالنور العابر ، فغمرته لذة كبيرة سال لها لعابه وود لو أنه سبق الزمن وانطوى سريعا هذا النصف الاول من الليل ٠ ووجد نفسه برفقة الشيخ يحمل له الفانوس ، وهو يدق على الطبلة فتفتح الابواب وتمتد الايدى الى الجوال بكل هذه الخيرات ٠

بيد أن هذا كله تلاشى فجأة ، وذاب كما تذوب قطرة الندى تحت وهج الشمس ، عندما التفت فرأى **سلوى** تقبل عليه وهى تحمل له فانوسا اشترته له حتى يكون مثلها ومثل بقية الصبية الذين يلعبون بفوانيس رمضان فى الجرن ، بيد أنه أحس عند رؤيته الفانوس فى يدها بشىء كثير من الخجل ، وأحس بهذا الخجل يتزايد وهى تقدمه له ٠٠٠ وتقول فى فرحة غمرت وجهها كله وزادته بهاء :

ـ هذه هى المفاجأة التى أعددتها لك ٠

ولما لم ترتسم على وجه الصبى الفرحة التى كانت تنتظرها وادركت بذكائها سريعا سر خجله وارتباكه ٠ قالت على الفور ٠٠ مسترسلة فى الضحك ٠٠ مستطردة فى الحديث :

ـ سأقول لك السر ٠٠ فقط لا تذعه على أحد ٠٠

ـ أى سر ؟

ـ خالتى آمنه ـ تقصد أمه ـ هى التى اشترته لك ٠٠ وأنكرته منك لأنها غاضبة عليك ٠٠

ـ لماذا ؟

ـ لأنك لم تحفظ بعد جزء عم ٠٠

فتهللت أسارير الصبى وهو يتناول من يدها الفانوس ، ويشدها من ذراعها ، ويركض معها الى الجرن قائلا فى ابتهاج :

ـ ان أمى لا تعرف شيئا ٠٠ لقد حفظت أيضا تبارك ، وقد سمع ، والاحقاف ، وفصلت ، والزمر ، وعما قريب سأحفظ نصف القرآن ، واذهب الى طنطا والتحق بالمعهد الأحمدى ، سمعت أبى يقول ذلك ٠

ثم أراد أن يقول لها شيئا آخر ، ولكن ساحة الجرن الكبيرة طالعتهما مكتظة ممتلئة بصبية القرية يحملن الفوانيس المضاءة ويركضن بها فى ساحة الجرن الذى تراءى لهما من بعيد كساقية فوانيسها من النجوم الباهرة التى تتلألأ فى الليل ، فوقفتا بفانوسيهما ينظران الى مئات الفوانيس الاخرى فى فرحة غامرة ، وكل آمال الصبى والصبية أيضا أن يظل رمضان فى القرية طيلة شهور السنة بل طيلة أيام العمر ٠ حتى يدورا فى هذه الساقية ، وينعما بهذا الجمال ٠

وقالت الفتاة للصبى :

ـ هيا بنا ٠

ولكن الصبى وقف متسمرا ينظر الى عصا عم نوفل وهى تدب نحوه كالثعبان ، ويصغى الى صوته الأجش وهو يقول :

ـ هل ستسرح معى أم سأشكوك لأبيك ٠٠

أمين يوسف غراب



العدد ٨٠

الثمن ٣

الدار القومية للطباعة والنشر